محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء السادس عشر

تأليـــف:

فضيلة الشيخ / محمد الصادق ابراهيم عرجون

عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م

عوامل الهجرة النبوية ودوافعها كانت سياسية واجتماعية واقتصادية

وبالتأمل فيما ذكرنا يظهر بوضوح لا يخالجه شك أن عوامل الهجرة النبوية ودوافعها التي اعتلجت في نفس النبي ﷺ حتى صارت موجبة محتمة إنما هي عوامل ترتبط أشد الارتباط بنشر الدعوة وتبليغ الرسالة. هي عوامل سياسية ترجع إلى البحث عن جو متفتح لسير الرسالة، تجد فيه متنفسًا فسيحًا لمنطلقها العالمي، لكي تحقق أهدافها الإصلاحية روحيًا وماديًا.

وإلى جانب العوامل السياسية هناك عوامل اجتماعية تتعلق بتنمية المجتمع الإسلامي الذي تنسَّم نسائم الوجود في مِهاد الدعوة الجديدة، ومحاضن الرسالة الخالدة، والحفاظ على عناصر تكوين هذا المجتمع في إطار من الضوابط القوية المنتزعة من طبيعة الدعوة التي نهدت في آفاقها.

وإلى جانب العوامل السياسية والاجتماعية عوامل اقتصادية تصون تركيب المجتمع الوليد حتى يشب ويقوى، وتشتد قناته ويبلغ رشده في الحياة العملية الحرة لإقامة بناء اقتصادي، يقوم على أساس ما جاءت به الرسالة الجديدة، من حب للعمل ودأب عليه، وعدل في المعاملة، وبذل من أجل نشر الدعوة، وتوفير حياة كريمة للأفراد والجماعات، وإعداد الوسائل الصالحة لتوجيه المجتمع توجيًا متعاونًا متواسيًا.

تجمعت هذه العوامل كلها أمام النبي ﷺ بأسبابها ومسبباتها، وما عسى أن يكون لها من آثار في حالة عدم إعطائها الوزن الحقيقي لمقدماتها ونتائجها، وفي تقديرها تقديرًا يدفع بها إلى أن تكون عملًا من أعمال تمكين الدعوة من متابعة سيرها بقوة جديدة، لم تكن تتوافر لها وهي في مكة تعاني من العقبات القاسية، والمعوِّقات الظالمة التي يقيمها في طريق الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته إلى عباده الحقدُ العنيد والعناد الكفور.

كانت هذه العوامل تأخذ من نفس النبي ﷺ مكانًا جعله يفكر فيها وفيما يجب أن تقابل به من تحرك إيجابى سريع، وكانت تلازمه في حركاته وسكناته، وغدوه ورواحه بعد أن استيأس من استجابة مكة لدعوته وإيمان ملئها برسالته الذين سدوا دونها أبواب الرجاء والأمل، وكان تفكيره ﷺ يدور حول تمكنه من القيام بواجب تبليغ رسالته ونشر دعوته، وتبليغ رسالته ﷺ هو أساس وجوده نبيًا ورسولًا.

ولم يطل به التفكير ﷺ حتى لمعت له بوارق النجاح والتوفيق في آفاق الوحي بالهجرة، فهمّ عازمًا، وصمم حازمًا، ولم يبق لديه ليخطو منفّذًا إلا انتظار كلمة الله يتلقاها إذنًا مرشدًا، ليعلم إلى أين يتجه، وجاءه الوحي رؤيا، إذْ رأى في منامه دار هجرته بوصفها، فذهب ظنه إلى ما يعرف من بلاد ينطبق عليها ما رأى من الوصف، ولم يقطع ببلد منها إذ لم تُعين في الرؤيا.

ولعل من حكمة هذا الإبهام في بدء الأمر إنما كان لإعطائه ﷺ فرصة من الزمن يروِّض فيها نفسه الكريمة ليستعد نفسيًا لمفارقة وطنه وبلده التي ولد فيها، ونهد في مهادها، وشبَّ في أفنائها، بين لداته وأترابه، ناشئًا في قومه وأهله، وعشيرته، وفيها شرّفه الله بنبوته، ثم بعثه فيها رسولاً إلى العالمين، وفيها تلقَّى أول كلمة من الوحي القرآني، حيث أنزل عليه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وهو أرفع مراتب الوحي، وفيها كافح وناضل في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته، وفيها ربى نخبة السابقين إلى الإيمان برسالته وتصديقه في دعوته، وهم الصفوة الذين لا تدانيهم في الفضل وسؤدد الشرف فئة من البشر قط، وفيها منازل الهدى والنور، وفيها البيت المحرم، بيت أبويه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وفيها زمزم سقيا إسماعيل وهزمة جبريل وثلج أمه الكبرى هاجر أم إسماعيل(١)، وفيها آفاق التجلي وشهود بعض آيات ربه الكبرى، إذ رأى جبريل عليه السلام على صورته التي هي له، يوم خلقه الله عليها، وفيها تزوج من سيدة نساء العالمين، وزيرة الصدق، الطاهرة المطهّرة، خديجة رضى الله عنها، وفيها رزق منها وُلْده بنين وبنات، إلا إبراهيم عليهم السلام، وفيها، وفيها من ذكريات وآيات وتجليات، كلها حبيب

(١) قولـه: (هزمة جبريل) إشـارة إلى كف زمزم عن زيـادة الفيض، من الفعل هَزَمَ أي غمـز الشـيء بيده فينهـزم إلى داخل، أو إشـارة إلى هزمها برجله الذي كان سـببا في خروج الماء، انظر مجمل اللغة لابن فارس وتفسير الرازي. (المجلة)

إلى قلبه، يشتد عليه أن يفارقها دون أن يروِّض نفسه على الرضا بهذا الفراق الحزين.

لابـد من الهجرة لقيـادة المجتمع المسـلم في مسيرة دعوته وتبليغ رسالته:

ونظر ﷺ فرأى أن كل ما يحبب إليه مكة ويرغبه في البقاء فيها والإقامة في ربوعها على ما فيه من بلاغ في الحب والرضا لا يوازن بروحة أو غدوة في سبيل نشر دعوته، دعوة الحق والخير، بل لا يوازن بخطوة في سبيل تبليغ كلمة من وحي رسالته، رسالة التوحيد والهدى والبر والندى والخير.

وقد وقفت مكة بملئها وسفهائها في سبيله، ومنعته من نشر دعوته، وهجرها أصحابه بإذنه وأمر ربه، فخلت خاوية على آفاقها إلا من شرَّير كفور، أو سفيه جهول، وبقي ﷺ وحيدًا بين هؤلاء الشرَّيرين والسفهاء، أو كالوحيد لقلة من بقي فيها من أصحابه، عاجزًا عن اللحاق بإخوانه في دار هجرتهم.

أفيبقى رسول الله ﷺ في مكة لا يجد من يسمع له، معرّضًا رسالة ربه للتوقف في مثواها الآمن الأمين، حيث هاجرت مع أصحابه إلى آفاق التحرك الإيجابي وهي لا تجد رسولها، وحامل أمانة وحيها، وصاحب زمامها، وقائد مسيرتها،

ومتولِّي أمرها ومتنزل وحيها، ومهبط آياتها، يقودها ويَهْدي بهديها؟ ويعلي كلمتها.

هذا ما لا يكون ولن يكون أبدًا، ولا بد مما ليس منه بد، لا بد من الهجرة ليؤدي واجب رسالته، ويقودها في مسيرتها إلى غايتها التي كتبها الله لها على يديه في عالم الغيب ومجرى المقادير.

وتطلّع رسول الله ﷺ إلى السماء، يقلِّب وجهه متضرعًا إلى ربه أن يجعل من ظنه يقينًا، فيريه دار هجرته معيّنة، ليقدم إليها ميمِّمًا شطرها، واستجاب الله عز شأنه لتضرعات رسول ﷺ، وأراه (يثرب) دار هجرته، ودار رسالته ودعوته، وأنزل عليه آية الدعاء والتضرع ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ (الإسراء: ٨٠) ومدخل الصدق هو مدخل النصر والظفر، ومخرج الصدق هو مخرج الرضا والعودة الظافرة بالفتح المبين، فالله تعالى كما آنسه ﷺ في مدخل صدقه ودار هجرته، وأخبره أنها دار أمن واستقرار ونصر، آنسه في مخرج صدقه، فأرضاه بمفارقة بلده الحبيبة إليه، أكرمه في مخرج صدقه، وجعله مبارك العودة منصورًا.

العوامل السياسية
في دوافع الهجرة النبوية

والعوامل السياسية التي كانت من دوافع الهجرة تبدأ منذ أول لحظة لقي فيها رسول الله ﷺ أول يثربي، هو سويد بن الصامت الأوسي حكيم (يثرب) ومتحنفها، ومعه صحيفة فيها من حكمة لقمان جمل ومقاطع، يحرص عليها ويتفهمها، وكان لقاء رسول الله ﷺ لسويد بن الصامت إثر عودته ﷺ من الطائف وهو مثقل النفس، مكروب الفؤاد، فتصدّى له رسول الله ﷺ ودعاه إلى الإسلام وتلا عليه القرآن، فرد سويد ردًا مقاربًا لم يدخل به في ساحة الإسلام، ولم يبعد عنها، ولكنه حام حولها.

ورجع سويد بن الصامت إلى بلده وقومه يحمل معه حادث لقاء رسول الله ﷺ وما جرى له معه من حديث عن الإسلام ودعوته والقرآن الحكيم وآياته، وكان هذا أول صوت يصل إلى أسماع اليثربيين عن محمد ﷺ ورسالته ودعوته إلى الله.

ثم تتابع لقاء رسول الله ﷺ للوافدين من يثرب في موسم إثر موسم، وكان اللقاء الذي أعقب لقاء سويد بن الصامت لقاء وفد أبي الحَيْسر الأوسي، وفيه إياس بن معاذ وهو شاب عقول ذكي، سَوِيّ الفطرة، وكان هذا الوفد إنما قدم ليعقد مع قريش حلفًا عسكريًا يتقوون به على حرب إخوانهم الخزرجيين، فتصدّى لهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام وقرأ عليهم القرآن، فبدر

القوم بالكلام إياس بن معاذ، وكان أحدثهم سنًا، فقال يجيب عن دعوة رسول الله ﷺ موجهًا الكلام إلى قومه: هذا والله خير مما جئنا إليه، فحصبه أبو الحيسر فأسكته، ولكن إياسًا سكت على مستكنهٍ في ضميره، تلك هي قناعته بما سمع من رسول الله ﷺ عن الإِسلام ورسالته والقرآن وهدايته، مما جعل قومه، يقولون عنه بعد موته إنه مات مسلمًا.

ومهما يكن من أمر إياس بن معاذ فإنه كان أعظم أثرًا في ذكر الإِسلام ودعوته ورسالته ورسوله ﷺ في بلده (يثرب) من سويد بن الصامت الذي عاجله الموت في معارك اليثربيين.

وسويد بن الصامت وإياس بن معاذ كلاهما أوسي، وبين الأوس والخزرج تنافس في المفاخر، وسمعت الخزرج صوت دعوة الإِسلام يهمس به الأوسيون فيما بينهم همسًا لا يكاد يبين، وكان الخزرجيون على ذَرْو من العلم المتناثر إليهم من أفواه أهل الكتاب من اليهود مواليهم وجيرانهم ومساكنيهم في بلدهم عن نبي يبعث قد أظل الناس زمانه، وكان اليهود يستفتحون برسول الله ﷺ على اليثربيين.

ودار الزمن دورته، وحضر الموسم، وقدم إليه فيمن قدم من وفود العرب، وفد (يثرب) وكانوا ستة من الخزرج، لقيهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإِسلام فأجابوا سراعًا، وبايعوا رسول الله ﷺ وواعدوه الموسم المقبل، وعادوا إلى بلدهم (يثرب)

مؤمنين مصدِّقين، دعاة إلى الإسلام، هداة إلى رسالته، وكان هذا أول صوت يجهر بدعوة الإسلام والتحدث عن رسول الله ﷺ، وتسامع أهل (يثرب) بالدين الجديد، وتحدّث الناس فيما بينهم عنه، وفشا ذكر الإسلام في بيوتهم ومجتمعاتهم.

فلما جاء الموسم القابل قدم وفد يثرب اثنا عشر رجلًا، لا يريدون إلا الإسلام، ولا يقصدون إلا لقاء رسول الله ﷺ، وكان ﷺ يتطلع إلى معرفة آثار بيعته لوفد الستة الذين بايعوه عام أول، وواعدوه الموسم المقبل، ليعلم ما كان منه في بلده وقومه.

ولقي رسول الله ﷺ وفد الخزرجيين الاثنى عشر رجلًا، وكان فيهم عدد من الستة الذين سبق لهم أن بايعوه وواعدوه، فلما رآهم استنار وجهه سرورًا، وعرض على الوفد الإسلام فبايعوه وبايعهم، وأخذ عليهم وأعطاهم، وعادوا إلى بلدهم وقومهم دعاة إلى الله، هداة إلى دينه، حتى جعلوا من بلدهم حصنًا للإسلام، ومن قومهم كتائب لحماية الدعوة إلى الله وتبليغ رسالة الله -سبحانه وتعالى-، وأقبل الناس على الإسلام يؤمنون به ويعتنقونه، حتى لم يبق بيت من بيوت (يثرب) أوسها وخزرجها إلا دخله نور الإسلام فأضاء جوانبه.

وأقبل الموسم ببشائره وجاءت البيعة الكبرى (فتح الفتوح) سبعون رجلًا لم يُقدمهم الموسمَ إلا بيعةُ رسول الله ﷺ، فبايعوه وعاهدوه على أن يحموه مما يحمون منه أنفسهم ونساءهم

وذراريهم إذا قدم عليهم، فبايعهم ﷺ على أنه حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم، وهم منه وهو منهم.

وعادوا إلى بلدهم يترقبون وصول رسول الله ﷺ إليهم في لهفة وشوق واستعداد من القوة المرهبة والعزائم القاهرة والإرادة الحازمة.

بهذا أصبحت (يثرب) تعج بالمجتمع الإسلامي المركب في وحدته البشرية من عنصري المهاجرين والأنصار، وهم باجتماعهم ووحدتهم يؤلفون قوة أرهبت مكة لأن مكة بطواغيتها وعتو ملئها، وفجور كفرها لم تكن تحسب لقوة في جزيرة العرب حسابًا في مناوأتها ومواقفتها في حرب مثل ما كانت تحسب لأبطال (يثرب) الذين راضتهم الحروب وراضوها على أزماتها وشدائدها وتضحياتها، فما كان أبغض لمكة وملئها من حرب قوم من هؤلاء اليثربيين.

كيف وقد امتزج بهم الصفوة السابقون الأولون من المهاجرين، وأكثرهم من أبناء بيوتات قريش وشبابها وفتيانها الأبطال الذين لا ينامون على ضيم، ولا يسكتون على ضيعة مستسلمين لذل أو هوان.

مكانة يثرب في الاستقرار والثراء أجل من مكانة مكة فيهما:

ويثرب هي البلد الذي يسامي مكة في شمال الجزيرة العربية

في الاستقرار والثروة ودواعيها من تجارة وصناعة وزراعة، بل إن يثرب تفوق مكة وتزيد عليها في ذلك كله.

أما الاستقرار، فهو ذاتي في يثرب؛ لأنها بلد زراعيٍ أصيل، والزراعة هي الجاذبية الأرضية، تشد من يتخذها عملًا له إلى الأرض، يحرث ويحرك ويقلب، ويسقي ويشذِّب، ويسمد، وينقي، ثم يحصد ويجُذ ويدرِس، ويصنف ويأخذ ويعطي، ثم يعود كما بدأ، لا يفرغ حتى يعود يعمل ما كان قد عمل.

وأما الثروة فإذا لم تكن الزراعة كافية لتأثيل الثراء وجمع المال، ففي التجارة بما يخرج من الزراعة، وثمراتها منتج لتكوين الثروة، وتجارة يثرب محلية وخارجية لها أسواقها الداخلية، ومضارباتها الخارجية، وفيها اليهود سلاطين المال وأرباب الحيل في جمعه من أي سبيل، يملكون زمام التجارة، ويلعبون بالأسواق وأسعار ما يحتاج إليه الناس، ولا يزالون يتحكمون في مصائر الاقتصاد العالمي بما لهم من خبرة في مجال التجارة والمراباة.

وقد كان بينهم وبين جميع عرب يثرب بحكم الجوار والتعامل صلات تجارية قوية، فأخذ اليثربيون من خبرتهم ما وسّعوا به أعمالهم التجارية إلى جانب أعمالهم الزراعية.

ولليهود في (يثرب) صناعات وفيهم صنّاع، ولا سيما صناعة صياغة الذهب والفضة، وكانوا يتعاملون مع جيرانهم في البلد، والصناعةُ كالزراعة لصيقة بالأرض، فهي من عوامل الاستقرار.

الاستقرار في مكة موسمي

أما مكة فالاستقرار المالي فيها عارض موسمي ديني، وتجارتها محدودة خارجية أكثر منها داخلية؛ لأنها تقوم على المضاربة في أضيق مجال، وتقوم على رحلتيها صيفًا وشتاء إلى الشام ثم إلى اليمن، وأسواقها إنما تعمر بالشعر والخطب، والفخر والمنافرة، وبضاعتها التجارية إنما ترد إليها من الخارج، وهي لما في جلبها إليها من المشقة وقلة الربح قليلة نادرة، وقد تكثر فيها تجارة البهائم والأنعام، وما يخرج منها من ألبان وجلود وأصواف وأوبار.

ومكة عديمة الزراعة والصناعة، لا يعرف لها فيهما شأن يذكر، ومن ثَمَّ كانت ثرواتها محصورة محدودة، تتداولها أيد قليلة، تتحكم في مجتمعها الذي يسوده الفقر والبؤس، وهي تنتظر مواسمها الدينية الوثنية بلهفة المتحرق الصديان، وفي هذه المواسم كانت القوافل واللطائم ترد إليها محملة بالزيوت والحبوب والبر والزبيب والأفاويه وما شاكل ذلك من الأطعمة وما يتصل بها(٢).

ولذلك كان من أفخر مفاخرها إطعام الطعام وسقي الماء؛ لأن مجتمعها كان أحوج إلى أن يأكل ويشرب ويلبس، وهو مجتمع

(٢) اللطائم جمع لطيمة وهي الإبل يحمل عليها البرُ والطيب خاصة، والأفاويه: المنكّهات أفضلها وأزكاها القرنفل، وأصل الكلمة (فوه) أي فم وتجمع على أفواه، وجمع الجمع أفاويه، وهي المنكهات العطرية التي تضاف للشراب أو الطعام. (المجلة)

جاهلي بأوسع ما تحمل الجهالة من معنى الجهل الذي لا يلم صاحبه بعارفة من علم فطري أو مكتسب، ومن معنى الجهل الذي ليس لصاحبه ذرة من حلم، فإذا ندّ فيهم حليم، أو ظهر بينهم من له دراية بشيء من علم تجريبي متوارث تمدّحوا بذلك وعدّوه أفخر المفاخر.

ومكة بعد هذا وذاك وكر الوثنية العاتية والشرك العنيد في الجاهلية كلها، وقد أعرضت مدبرة عن دعوة توحيد الله تعالى، بل انتهضت إلى مقاومتها فطاردتها مطاردة عنيفة عاتية، واضطهدت معتنقيها، وآذت رسولها؛ لأنها خشيت أن تهدم هذه الدعوة التوحيدية مجدها الوثني، وتقوض عزها الجاهلي، وتزيل سلطانها المادي الذي يستمد طغيانه من الوثنية وفجور الكفر، الذي يستعبدون به الأحرار من الضعفاء والفقراء.

أفلا يكون إذًا من حسن السياسة ومحكم التدبير، وواجب التكليف في تبليغ الرسالة، ونشر دعوة الحق أن يهاجر النبي ﷺ وقد فتح الله تعالى أمامه آفاق الهجرة من هذه القرية الظالم أهلها إلى بلد يتوافر فيه الاستقرار والأمن له ولأصحابه ولدعوته، بل تتوافر فيه القلوب المخلصة في إيمانها، والبطولة المجاهدة والعقول المستنيرة، والثروة الباذلة، والأيدي المنفقة، والقوة الرادعة المرهبة والمحبة المؤثرة، والوفاء الصدوق، بعد أن أوصدت مكة أمامه وأمام دعوته ورسالته، باب كل أمل على مدى

ثلاثة عشر عامًا كاملة، قضاها ﷺ بين أهلها نبيًا ورسولًا – وهم أعرف الناس بصدقه وأمانته وسمو مكارم أخلاقه، يغاديهم فيها ويراوحهم داعيًا إلى الله، مرشدًا ناصحًا، حفيًا بهم هاديًا، حريصًا عليهم، يرغبهم في ثواب الله تارة وينذرهم بأسه وبطشه تارة أخرى، يعظهم ويرشدهم إلى آفاق العزّة والسؤدد، يؤذونه أشد الأذى فيعفو عنهم ويصفح، ويسيئون إليه أقبح الإساءة فيغفر لهم إساءتهم ويدعو لهم بالهداية، ويسخرون منه فيصبر ويتسامح معهم ويرفق بهم، ويمكرون به ويسفهون عليه، ويأتمرون بقتله والفتك به فلا يبالي أن يواجههم بدعوتهم إلى الله، باذلًا نفسه في سبيل إنقاذهم من عذاب الله.

بلى، إن هجرة محمد ﷺ حينئذ كانت من ألزم الأمور، وأشد الضرورات التي تقضي بها السياسة الحكيمة في متابعة سير الدعوة وتبليغ الرسالة حيثما وجدت القلوب المستعدة لتقبلها والإيمان بها، وها هم أولاء أنصاره الذين بايعوه على حمايته وحماية رسالته، الذين تبوءُوا دار الهجرة ودار الإيمان من قبل أن ينزل بهم إخوانهم المهاجرون قد أخلصوا له الحب، وأحبوا أصحابه المهاجرين حبهم لأنفسهم بل أشد من حبهم أنفسهم، شاركوهم في أموالهم، وآثروهم على أنفسهم ولو كانوا هم أحوج إلى ما آثروهم به.

قيادة المجتمع المسـلم الجديـد في دار هجرته توجب الهجرة النبوية:

ومما يستوجب هجرة النبي ﷺ مع هذه الصورة الموجبة لهجرته ﷺ حاجة هذا المجتمع الجديد الذي وحّدت بين عناصره الدينية عقيدتُه التوحيدية ورسوخ إيمانه - إلى قيادته الحكيمة لسياسته في حياته الجديدة، وحل مشاكله ومراقبة سيره، وتعهده في تربيته وسلوكه الاجتماعي، ليكون صورة حية تطبيقية في واقع الحياة لشرائع الإسلام وآدابه وأخلاقياته ونظمه الاجتماعية التي ترتكز على العدل الرحيم والمواساة الأخوية. لأن هذا المجتمع في تركيبه البشري - بما في هذا التركيب من اختلاف في التفكير واختلاف في النظر إلى الحياة، من وجوهها المختلفة - صورة للمجتمع الذي يتفق ويختلف، وقد يشتد فيه الاختلاف فيؤدي إلى مشكلات اجتماعية يجب أن تجد حلَّها في سرعة وصبر، كما برهنت أيام المستقبل على ذلك، فيما حدث بين المهاجرين والأنصار من أحداث كادت - لولا سرعة تدخل النبي ﷺ - تؤدي إلى عواقب وخيمة، وهذه الأحداث برهان قاطع على وجوب أن القيادة يجب أن تكون دائمًا في مرأى العين، ومسمع السمع، لتوجّه وترشد، وتهدي وتوفِّق وتعالج وتحسم.

وقيادة النبي ﷺ لمجتمع الإسلام ليست قيادة عسكرية ولا قيادةسياسية وإنما هي قيادة نبوية، تعتمد على توجيه الله تعالى لنبيه ﷺ وتسديده وتوفيقه بما يوحيه إليه، يقول الله تعالـــى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ (النساء: ١٠٥) فهي قيادة لا تقبل ردّ ما يقضي به الله سبحانه، ولا تقبل التوقف في التسليم به، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ (النساء: ٦٥) وهي قيادة لا تقبل التقدم عليه ﷺ في قول أو فعل كما قال تبارك وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾

(الحجرات: ١)

ومن ثَمَّ كان وجود رسول الله ﷺ على رأس مجتمع الإسلام في حياته كلها تحقيقًا لوضع رسالته ﷺ موضوعها من التطبيق العملي لشرائعها وأحكامها وآدابها وسياستها ونظمها الاجتماعية، واستكمالًا لتلقِّي آياتها، وتبيانًا لمعاني ما أنزل إليه منها.

وليس في حياة المجتمع الإسلامي - ما دام القرآن الكريم سيّال التنزيل - لحظة يمكنه فيها أن يستغني عن قائده ورسوله ﷺ، الذي تجعله رسالته على أتم المعرفة والعلم بما يجرى في حياة هذا المجتمع، ولا سبيل لتحقيق ذلك إلا بهجرته ﷺ من مكة التي خوت أرجاؤها من أصحابه إلى المدينة التي جعلها الله دار هجرته، ومستقر دعوته، وحصن مجتمعه الجديد المسلم.

العوامل الاجتماعية
في دوافع الهجرة النبوية

أما العوامل الاجتماعية التي كانت إلى جانب العوامل السياسية من دوافع الهجرة النبوية فتتجلَّى في حاجة هذا المجتمع الإِسلامي الجديد في تركيبه الاجتماعي إلى القائد المهيمن بسلطانه الحكيم، وتدبيره العليم بأحوال المجتمع، الحاسم في قضائه وتوجيهه، السياسي المحنَّك، قاطع القضاء في سرعة حل مشاكل مجتمعه، البصير بمكامن انفراج عُقَد الأزمات، الحليم الذي لا تستفزه معضلات الأحداث، ولا يحيد به الغضب عن سداد التفكير، الشجاع الذي يجابه النوازل بكفائها دفعًا، الجسور الذي لا ينكل عند ملاقاة الأحداث، الصبور الذي يقابل شدائد الأزمات بالفكرة الصائبة التي تفك عقدها في عزيمة حازمة، الموجه لحياة المجتمع في ثبات ورسوخ يقين، المسدَّد بالوحي الإِلهي الذي يقيم لمعالم الهداية على طريق سير رسالته في مسارب الحياة وآفاق الكون.

ذلكم هو محمد رسول الله ﷺ، المصطفى لتحمل أمانة أكمل رسالة إلهية ختمت بها رسالات السماء، المكلّف تبليغها إلى الناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها، القوي الأمين على قيادة مجتمعه، القابض على زمام رسالته، الآخذ بناصيتها في سيرها ليوائم بينها وبين مجتمعها الجديد في استقراره وطرائق عيشه وحياته وموقفه من سير الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته،

وموقفه من أعداء الدعوة الذين أخرجوها وأخرجوا معتنقيها من ديارهم وأموالهم ظلمًا وعَدْوًا، وموقفهم من أعدائهم الجدد في وطنهم الجديد، ممن انطووا على قلوب مفعمة بالحقد، مبطنة بالحسد، أولئك هم اليهود لعنة الله على الأرض، وشراذم صنائعهم المنافقون.

اليهود في المدينة شوكة حادة في ظهر المجتمع المسلم:

واليهود في (يثرب) مهجر الرسالة ورسولها والمؤمنين بها أصحاب ثراء وأموال مؤثلة وتجارات مُربية، وزروع منتشرة، وقلاع محصنة وحصون محفظة، وقصور متعالية، وآطام مؤسسة، وعلم موروث[٣]، وكتب منزلة على أنبيائهم، وشروح وتفاسير لهذه الكتب، حرِّفت من نصوصها، وبدلت من آياتها، وزيد فيها، وانتقص منها، كانوا يتعالون بهذا العلم المشوب بالجهل على جيرانهم ومُساكنيهم من عرب (يثرب) الذين كانوا يُكْبرونهم بهذا العلم، ويأتمون بهم في كثير من أفكارهم في طرائق الحياة.

المنافقون من ربائب اليهود في خبثهم:

أما شراذم المنافقين فكانوا فئة من اليثربيين الذين بخعت رسالة الإِسلام أطماعهم، وجدعت أنوف طموحهم وآمالهم،

(٣) آطام: جمع أطم وهو الحصن. (المجلة)

فجعلوا من أنفسهم أحلاسًا لليهود(٤)، يذلونهم ويتحكمون في مصائرهم، ويأتمرون بأوامرهم، ويحاكونهم في خبائث أخلاقهم من الغدر وسوء المكر، أظهروا الإسلام ذلة وتقية، وأبطنوا الكفر فجورًا وبغيًا، يكيدون للإسلام وأهله، ويمكرون بالنبي ﷺ، ويقيمون العراقيل أمام دعوته، وهم في بيوت المسلمين ومساجدهم ومجتمعاتهم متدسسون، يرجفون بالإفك والفِرَى يستمعون إلى أحاديثهم فيحرفون ما يسمعون، ويختلقون من الأكاذيب وقول الزور ما يبلبلون به الأفكار والخواطر، ويقعون في أعراض المسلمين، ويشيعون السوء والفحش والأباطيل، ويسعون في الأرض فسادًا، ويحاولون بالنمائم إفساد علائق الإخاء والمودة بين المسلمين، ذئاب في أهب أناس، أحرق النفاق أكبادهم، وأذلَّ سلطانُ الإسلام وقهره أعناقهم، فمشوا في المجتمع الإسلامي جراثيم شر وبوائق إفساد ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (المنافقون: ٤).

مجتمع بغير قائد حكيم لا يستطيع تحقيق أهدافه:

هذا المجتمع الجديد في تركيبه البشري والفكري والاجتماعي إذا لم يجد قائده ومعلّمه ومربِّيه أمامه، يسوسه ويسدده، ويوجهه

(٤) الحلس ما يجلس عليه، ويستعار للملازمة. والمراد بقوله: (أحلاسا لليهود) أتباعا يأتمرون بأمرهم. (المجلة)

ويرشده، ويشاركه حركاته، وسكناته، ويكون قدوته في حياته، ونظام مسيرته مع موجبات رسالته، ويتلقى منه آيات ربه، تشريعًا وأدبًا وحكمة وسلوكًا وتربية تطبيقية عملية في واقع الحياة وأحداثها - كيف يمكن أن يسير برسالة الله، يبلغها إلى الخلق؟ وكيف يمكنه أن يقوم بموجبات الدعوة إلى الله تعالى؟ وكيف يمكنه أن يقيم للناس منائر الهداية في طريق سير الرسالة؟ وكيف يمكنه أن ينصب لهم معالم الحق والعدل حتى لا يضلوا في مسيرهم داعين إلى الله وتوحيده وكمال إلهيته؟ وكيف يمكنه أن يؤسس بينهم دعائم الأخوة والمحبة والتراحم والمواساة ليكونوا مثلًا للخير والهدى والنور؟.

إن وجود رسول الله ﷺ على رأس مجتمعه في دار هجرته، يقوده بزمام وحي رسالته في مرحلتها الجديدة، مرحلة التشريع والتنظيم والجهاد القتالي ضرورة من ضرورات سير الرسالة ونشر الدعوة حتى تبلغ آفاقها من الكمال الاجتماعي والتشريعي، بعد أن بلغت أوج كمالها العقدي.

ومن ثم كانت هجرته ﷺ من مكة التي أخرجت أصحابه، وسدّت الآفاق دون دعوته إلى المدينة التي جعلها الله مستقر رسالته، وبؤرة إشعاع نور دعوته لازمة لمتابعة سير رسالته، وقيادة مجتمعه الإسلامي في تركيبه الاجتماعي الجديد الذي يقتضي رعاية في التوجيه والإرشاد.

العوامل الاقتصادية
في دوافع الهجرة النبوية

أما العوامل الاقتصادية التي كانت إلى جانب العوامل السياسية والاجتماعية دوافع إلى الهجرة النبوية، فهي واضحة في النظر إلى وضع المجتمع الإسلامي، وتفهم حالته الاقتصادية في مكة، ثم النظر إلى حالته بعد تركه مكة وهجرته إلى المدينة، وامتزاجه بمجتمعها المسلم امتزاجًا فاق كل ما تعرف الحياة من روابط الامتزاج والمشاركة الحقيقية بين مجتمعات البشر.

فالمجتمع المسلم في مكة من السابقين الأولين لم يكن مجتمعًا من الفقراء والضعفاء والموالي والعبيد كما يصوِّره بعض الكاتبين في السيرة النبوية، بحسن نية أو سوء قصد، وإنما كان مجتمعًا يقوم في تركيبه البشرى على قوة العقيدة وقوة الإيمان بها، ولم يكن للضرورات الاجتماعية دخل أساسي في تركيب هذا المجتمع إلا بقدر ما تقتضيه التأثرات العامة في الحياة والبيئة.

وقد سبق لنا عند الحديث عن الهجرة إلى الحبشة أن فنَّدنا فكرة أن نواة المجتمع المسلم الأول - مجتمع السابقين الأولين - كانوا من الضعفاء والفقراء والموالي والعبيد، الذين وجدوا في دعوة الإسلام إلى الحرية والمساواة والعدالة والإخاء، إنقاذًا لهم مما كانوا يرزحون تحت نيره من الظلم الفادح والاستعباد المادي الفظيع، فأسرعوا إلى الانضواء تحت لواء هذه الدعوة، ووطنوا أنفسهم على بطولة الصبر والاحتمال لما يلقون من جبروت

طواغيت المادة في سبيل لقمة العيش، ليفوزوا بالحرية والعدالة في مجتمع تحكمه المادة العمياء والترف البطين، أو يذهبوا مع أبطال التاريخ شهداء الحرية والعدالة في خلود الذكر البطولي والسمعة الداوية.

تصوير خادع في صورة حق أريد به باطل:

هذا التصوير الخادع فيه شيء من صورة الحق، ولكنه حق أريد به باطل، هو حق في واقعه الإسلامي، لأن الإسلام دين لا يقف مع الأفراد والطوائف ليعطيها بطولات سلبية، ولكنه دين جاء بنظام اجتماعي ينظر إلى الحياة كلها بما فيها وبمن فيها على أنها تركيبة كونية وحَّدت بينها نواميس تحكمها بروابطها الطبيعية، وينظر إلى الإنسانية على أنها تركيبة بشرية وحَّدت بينها عناصر مادية وفكرية وروحية، وقد أعطيت الإنسانية زمام القيادة للحياة، وأعطي الإنسان سلطان الخلافة في الأرض، ليقيم عليها موازين العدالة في ظل حقيقة الإنسانية الوحدوية التي هي حقيقتها منذ أوجدها الله في نموذجها الأول.

وهذه الوحدة - التي تجمع البشرية إخوة سواسية في الحقوق والواجبات، لا يتميز فيها قوي على ضعيف، ولا غني على فقير، ولا قادر على عاجز - كانت هي القاعدة التي قام عليها نظام الحياة في الإسلام، بعد تأسيس العقيدة على وحدانية لله تعالى، تستوجب إفراده بالعبادة والطاعة.

وإذا كانت قاعدة الإسلام النظامية في نظرته إلى الحياة ووحدة

المجتمع البشري من الدوافع للمظلومين أن يستجيبوا إلى دعوة هذا الدين، فيعتنقوه عقيدة ونظامًا، فليس معنى هذا أن الإسلام مالأ الضعفاء على الأقوياء، أو حابى الفقراء على الأغنياء، وإنما معناه أن الإسلام في حقيقته النظامية دين يرفع لواء العدالة الاجتماعية بين جميع البشر أفرادًا وجماعات، وأممًا وشعوبًا، فللغني حقه في الحياة، لا يزيده غناه على هذا الحق شيئًا، وللفقير حقه في الحياة، لا ينقصه فقره من هذا الحق شيئًا.

فإذا ظلم غنٌّى فقيرًا كان كظلم الفقير للغني، كلاهما ظلم بغيض يجب رفعه وإحلال العدالة محله، وهذا هو قانون الإسلام الذي جاء به كتابه الحكيم في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾

(النساء: ١٣٥)

روى الطبري وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: أمر الله المؤمنين أن يقولوا الحق ولو على أنفسهم أو آبائهم أو أبنائهم، لا يحابوا غنيًا لغناه، ولا يرحموا مسكينًا لمسكنته.

وأخرج ابن جرير عن السدِّى في الآية قال: نزلت في النبي ﷺ، اختصم إليه رجلان، غني وفقير، فكان حلفه مع الفقير،

يرى أن الفقير لا يظلم الغني، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير.

ومن هنا كان واجبًا على الدارسين الباحثين في السيرة النبوية وأحداثها ورجالها وموقف النبي ﷺ من هذه الأحداث وتطبيق النصوص عليها، أن يتعمقوا في دراستهم وبحوثهم ناقدين ممحِّصين، متتبِّعين سير الرسالة وأطوارها في مراحلها منذ اللحظة الأولى التي بدأت فيها بوحي طلب تبليغها إنذارًا عامًا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ (المدثر: ١، ٢) أو إنذارًا خاصًا في قوله عز شأنه: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)

وقد ترك أمر الجهر بالدعوة في الإنذارين العام والخاص إلى مرحلة قادمة من مراحل سير الرسالة، ليتم الاستعداد النفسي، وتعرف الجو المحيط بالدعوة في بيئتها التي نهدت بين أحضانها؛ لأن النهوض بأعباء الإنذار العام كان يستدعي التريث في الجهر بالدعوة اتقاء لمشقة المفاجأة، لتأصل عنجهية الوثنية في أساطين الشرك تأصلًا موروثًا جعل منها مصدرًا يستمد منه ملأ الكفر تعاليهم على العرب، وفرض سلطانهم المادى والمعنوى على قابائلهم، وما يجره ذلك من مكاسب مادية في المواسم والأسواق والرحلات.

قال الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي في الدلائل: لما أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يُعْلِم الناس نزول الوحي

عليه ويدعوهم إلى الإيمان به كَبُر ذلك عليه فنزل قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧).

مدنية السورة من القرآن لا يلزم أن تكون جميع آياتها مدنية

وهذه الآية الكريمة وإن كانت في نظم التلاوة في سورة مدنية، هي سورة المائدة وهي من آخر ما نزل من القرآن، فذلك لا يمنع من أن تكون الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ﴾ مكية النزول؛ لأن كثيرًا من الآيات التي نزلت في مكة لمقتضى استدعى نزولها يومئذ موضوعة توقيفًا من النبي ﷺ في سورة مدنية، وكثير من الآيات المدنية نزولًا موضوعة توقيفًا في سورة مكية.

ومكية السور ومدنيتها إنما هي باعتبار أكثر آيات السورة نزولًا، وبعيد جدًا أن تكون آية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ﴾ مدنية نزولًا، أي أنها نزلت بعد الهجرة؛ لأنه لم يعرف في أحداث السيرة النبوية أن النبي ﷺ توقف لحظة منذ استقراره بدار هجرته عن تبليغ رسالته، أو كبر عليه تبليغ شيء مما أنزل إليه من ربه في شأن أعدائه الجدد من أهل الكتاب والمنافقين تهيبًا لهم أو خشية من أذاهم، أو خوفًا من إنزال ضرر به من هؤلاء الأعداء، فلا وجه حينئذ لجعل الخطاب في الآية موجهًا إلى رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة التي أصبحت دار الإسلام والاستقرار والأمن والقوة والمنعة والعزة.

فما كان النبي ﷺ بعد هجرته يخاف شيئًا قط يكبر عليه معه أن يبلغ شيئًا مما أنزل إليه من ربه في شأن أعدائه من أهل الكتاب والمنافقين حتى يحتاج معه ﷺ إلى توجيه هذا الخطاب الشديد في أسلوبه، الذي يحتوي على أعظم التهديد والزجر، والذي عُقِّب بالإخبار بعصمة الله له وحفظه من وصول ضرر يريده به أعداؤه في دار هجرته ومستقر دعوته.

أما في مكة فكان ذلك ممكنًا ودواعيه متوافرة، حيث اللَّدد، والعداوة، والمكر، والكيد، وفادح البلاء يُصَب على أصحاب النبي ﷺ، وحيث التربص به ﷺ لقتله والفتك به للتخلص من دعوته التي غصت بها قريش وطغاة ملئها من عبيد الوثنية المشركين وملاحدة الكفر الفاجرين.

كانت المدينة حصنًا منيعًا للمجتمع المسلم فلا مقتضى منها لنزول آية أو آيات للتحريض على التبليغ

والمدينة وإن كان فيها اليهود، وهم أَلَدّ عداوة، وأشد شراسة، وأعظم غدرًا وحسدًا لرسول الله ﷺ، وفيها ربائبهم المنافقون، وهم أخبث وأفجر، لكن هؤلاء وهؤلاء كانوا أذلّة مكظومين، من الشجاعة، ما يظهرون به في غدرهم برسول الله ﷺ، والأحداث التي وقعت منهم ممثلة لغدرهم إنما كانت تدبيرًا خبيثًا تحت جنح الظلام، ائتمروا به في مخابئهم وبيوتهم، وفي كلها كان الله تعالى يفضحهم ويكشف سوآتهم قبل أن يقع منهم شيء ينالون به من رسول الله ﷺ.

وقد كان النبي ﷺ محاطًا بأصحابه من المهاجرين والأنصار وهم الكثرة الغامرة في المجتمع المدني، وكانوا هم القوة الرادعة لهؤلاء الأعداء الداخليين كما كانوا قوة مرهبة لأعدائهم الخارجيين.

وقد تشبث من تمسك بمدنية آية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ﴾ بحديث عائشة رضي الله عنها (كان رسول الله ﷺ يُحْرَس حتى نزلت هذه الآية، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبّة فقال لهم: "أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله"

ولا متمسك لهم في الحديث لاحتمال أن السيدة عائشة رضي الله عنها لم تخبر عن أمر شهدته، وإنما حدّثت عن أمر حُدِّثت عنه ممن شهد الحادثة، ونزول الآية في مكة من الصحابة رضي الله عنهم، ولاحتمال أن قول رسول الله ﷺ لأصحابه – على فرض أن هذا القول كان بالمدينة – إخبار عن حال ثابتة له ﷺ منذ كان بمكة، ولما رأى حرص أصحابه على حمايته وانتدابهم لحراسته في بلد نزل فيه مهاجرًا قبل أن يستقر ذكّرهم بأنه لا حاجة له بحراستهم لأن الله تعالى قد عصمه منذ كان في حومة الأزمات والشدائد بمكة.

وبهذين الاحتمالين تبقى مكية الآية قائمة، يعزّزها أن توجيه الخطاب بهذا الأسلوب الشديد الذي يدل على أن النبي ﷺ كان قد فتر شيئًا ما عن تبليغ ما أنزل إليه من ربه وهو بالمدينة من آيات تعيب على أهل الكتاب ما هم عليه من سوء السلوك والغدر،

والحسد وشدة العداوة للإسلام ونبيه ﷺ وأهله، وكتمانهم للحق الذي في كتبهم وتحريفهم لها، وهذا ما لم يثبت قط فالآية مكية، لأن مكة كانت متنزل السور والآيات التي تنعي على أهلها تمسكهم بالوثنية وانحطاط عقيدتهم المشركة، وتعيب آلهتهم وآباءَهم، وتسفه أحلامهم، وكانوا يودّون لو أن رسول الله ﷺ داهنهم، فلم يجبههم[٥]، بذكر مساويهم وإعلان فجور كفرهم كما أخبر عنهم القرآن الحكيم بذلك في قوله: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ (القلم: ٩).

أكثر الآثار تدل على مكية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ﴾:

وهنا يكون احتمال تريث النبي ﷺ عن مجابهتهم لحرصه على عدم تنفيرهم ومباعدتهم قويًا، وهذا معنى ما جاء في رواية البيهقي: (فكبر ذلك عليه).

ويؤيد ذلك ما أخرجه أبو الشيخ عن الحسن قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله بعثني برسالة فضقت بها ذرعًا، وعرفت أن الناس مكذبي، فوعدني لأبلغنَّ أو ليعذبنِّي» فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وما أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد قال: لما نزلت ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ قال: "يارب إنما أنا واحد، كيف أصنع؟ يجتمع عليّ الناس" فنزلت ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾

(٥) جَبَهَهُ أصابه في جبهته، ويستعار لكل من يواجه غيره بحقيقة يكره سماعها. (المجلة)

فهذه الروايات مفسرة لمعنى الآية، ومبينة لمضمونها بما يقتضي نزولها بمكة حيث كانت الأزمات والشدائد والمحن تتوالى على النبي ﷺ وعلى أصحابه مما يحتمل الموقف معه أن يضيق النبي ﷺ ذرعًا ببعض ما ينزل إليه من ربه من آيات تسفه أحلام طواغيت الوثنية وطغاة المشركين، وتعيب آلهتهم، وتنتقص آباءهم كما جاء في سورة هود - وهي مكية - من قوله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ ﴾ (هود: ١٢)

وحينئذ يستوجب الموقف دفعًا قويًا محذّرًا، يمضي به النبي ﷺ قُدُمًا في عزيمة حازمة وإرادة صارمة، مبلِّغًا جميع ما ينزل إليه من ربه، لا يبالي رضي الطغاة من عبيد الوثنية أم سخطوا، أعرضوا مدبرين أم أقبلوا مستجيبين لأن رسالة الإسلام لم تكن تتملق أحدًا على الإيمان بها، ولم تكن لتداهن الطغاة المستكبرين لتدخلهم في ساحتها، والله تعالى يقول لرسول صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾

(الكهف: ٢٨ ، ٢٩)

ويقول عز شأنه: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ ﴾ (الروم: ٤٤) وفي آية أخرى: ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ (فاطر: ٣٩)

قال الإمام ابن عطية: فإنما أمر ﷺ في هذه الآية أى يا أيها الرسول بلّغ لئلا يتوقف على شيء مخافة أحد، وذلك أن رسالته عليه السلام تضمنت الطعن على أنواع الكفرة وإفساد أحوالهم، فكان يلقى منهم عنتًا، وربما خافهم أحيانًا قبل نزول هذه الآية، وفي حديث لابن عباس تقدم مرسلًا عن الحسن: "لما بعثني الله برسالته ضقت ذرعًا، وعرفت أن من الناس من يكذبني" فأنزل الله هذه الآية، وفي صحيح مسلم تصوير لبشاعة ما كان يتوقعه ﷺ من الإيذاء والضرر، وذلك في قوله ﷺ: «إذًا يثلغوا[٦] رأسي حتى يدعوه خبزة»، وسياق هذا الحديث في صحيح مسلم مشعر على طوله بأن هذا كان بعد الهجرة، وقد تنبه القرطبي إلى ذلك، فنزع هذه الجملة من سياق مسلم ووضعها في موضعها عند كلامه على آية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ﴾ باعتبارها مكية وهذا هو الصواب.

الرد على أبي حيان ...

ولا وجه لقول أبي حيان في (البحر) وإن كان الطبري قد جنح إليه: والذي يظهر أنه تعالى أمّنه من مكر اليهود والنصارى، وأمره بتبليغ ما أنزل إليه في أمرهم وغيره، من غير مبالاة بأحد، لأن الكلام قبل هذه الآية وبعدها هو معهم فيبعد أن تكون هذه الآية أجنبية عما قبلها وعما بعدها.

لأن اعتماد أبي حيّان في الاستدلال على استظهاره، على سياق آية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ﴾ وسياقها لا يستلزم مدنيتها ونزولها بعد

(٦) ثَلَغَ رَأْسَهُ كمَنَعَ: شَدَخَهُ وهَشَمَهُ. (المجلة).

الهجرة في أمر اليهود والنصارى، لأن كون آية من آيات القرآن موضوعة توقيفًا من النبي ﷺ في نظم التلاوة بين كلام في شأن طائفة من الطوائف، وهي متسقة الربط منسجمة المعنى مع ما قبلها وما بعدها - لا يجعلها أجنبية عما قبلها وما بعدها، لأن المدار في سمو نظم القرآن الحكيم لم يقم على أساس التوافق الزمني أو المكاني في نزول الآيات، وإنما المدار فيه على انسجام المعنى واتساقه في نظم التلاوة، ولو تباعد زمن النزول واختلف مكانه، وهذا هو سر التوقيف في ترتيب الآيات ونظمها في وضع التلاوة.

فلا بِدْع أن تكون آية أو آيات نزلت في مطلع الرسالة وشدائدها، ثم وضعت توقيفًا بين آيات نزلت في أواخر ما نزل من القرآن مادام المعنى في الآيات منسجمًا متسقًا، يأخذ بعضه بحجز بعض، وهذا كثير في القرآن الحكيم، وهو من دلائل الإعجاز.

ثم مضى أبو حيان على ما ذهب إليه فقال في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أى لا تبال في التبليغ فإن الله يعصمك، فليس لهم تسلط على قتلك لا بمؤامرة ولا باغتيال ولا باستيلاء عليك بأخذ وأسر.

ثم قال أبو حيان: وروى المفسرون: أن أبا طالب كان يرسل رجالًا من بنى هاشم يحرسون رسول الله ﷺ حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فقال ﷺ: «إن الله قد عصمني من الجن والإنس، فلا أحتاج إلى من يحرسني».

ثم روى أثرًا عن ابن جريج قال فيه : كان النبي ﷺ يهاب قريشًا فلما نزلت ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ استلقى وقال : "من شاء فليخذلني" مرتين أو ثلاثًا.

ثم عقَّب أبو حيان على هذه الروايات فقال: وهذا وما قبله يدل على أن ذلك كان بمكة .. والصحيح أنها نزلت بالمدينة، والرسول مقيم بها شهرًا، وحرسه سعد وحذيفة فنام حتى غطّ فنزلت، فأخرج رأسه من قبة أدم(٧)، وقال: "انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله، لا أبالي من نصرني ومن خذلني" وأصل هذا الحديث في صحيح مسلم.

وحديث أبى طالب وإرساله حرّاسًا من رجال بنى هاشم، أخرجه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله، قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج بعث معه أبو طالب من يكلؤه حتى نزلت ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فذهب ليبعث معه، فقال: "يا عم، إن الله قد عصمني لا حاجة لي إلى مَنْ تبعث" وأخرجه الطبراني، وأبو الشيخ، وأبو نعيم في الدلائل، وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يُحْرَس، وكان يُرْسِل معه أبو طالب كل يوم رجالًا من بنى هاشم، يحرسونه فقال: "يا عم إن الله قد عصمني، لا حاجة لي إلى من تبعث".

فتركُ الروايات المتضافرة - الدالة بصريحها على مكية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية، وأنها نزلت في

(٧) القبة من الخيام بيت صغير مستدير، والأدم الجلد. (المجلة)

موقف أهل مكة من رسول الله ﷺ وموقفه منهم، ومناسبة معناها لذلك - لا يستقيم مع سنن البحث الممحص لمجرد أن الآية في نظم التلاوة موضوعة في سورة مدنية بين آيات تعيب على أهل الكتاب ما عيب على أهل مكة من العتو في الكفر، وفضول الضلال مما جعل التناسب المعنوى بين الآية وبين ما سبقها ولحقها في نظم التلاوة متسق الوضع منسجم الربط، وهذا الترتيب في وضع الآيات هو أحد دعائم الإعجاز الأسلوبي في القرآن الكريم.

الآية كلها نزلت بكامل جملها مرة واحدة بمكة أيام شدة الأزمات

ومما يحسن التنبيه إليه ما جاء في بعض الروايات وذكره بعض المفسرين مِنْ إفراد قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وسلخه عن بقية الآية قبله مما يفكك الكلام، والآيةُ كلها مرتبط بعضها ببعض في وحدة معنوية تصوِّر في نزولها بمقتضى الروايات المتضافرة، وفي وضعها التوقيفي بمقتضى توافق المعنى وانسجام الربط بين مقاصد الآيات ونظم الجمل - معنى واحدًا هو المقصود بالآية كلِّها.

وقد نزلت الآية بمجموع مقاطعها وجملها لتؤدي صورة من المعنى الموحد لا تكتمل ولا تتم إلا بجميع جملها وكلماتها مجتمعة على ترتيبها الذي أنزلها الله عليه.

فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ وقد ضاق ذرعًا ببعض ما أنزل إليه من شدائد الآيات المجبِّهة للمشركين، العائبة عليهم سوء مسلكهم

الوثني؛ مما جعلهم ينفرون عن سماع القرآن ويباعد بينهم وبين رسول الله ﷺ، يا أيها الرسول، يناديه بهذا الوصف الملزم لتحمل مشاق التكليف مهما كانت العقبات والأزمات وشدائد المحن، وفادحات البلاء، وإلا فكيف يكون رسولًا لله تعالى برسالة تخرج الناس من الظلمات إلى النور، وتقيم أود الحياة واعوجاجها على سنن من الاستقامة لا عهد لها به من قبل - من لم يكن له من الصبر على المشاق ما يفوق صبر جميع أولي العزائم الماضية، ومن لم يكن له من مضاء العزيمة ما يسمو على عزائم أصبر الصابرين، ومن لم يكن له من الاحتمال لشدة ما يلقى من البلاء ما يقهر به عظائم الأحداث ومعضلات المشكلات.

هذا ما لا يكون أبدًا في سُنن الله تعالى مع رُسله الذين يصطفيهم لتحمل مشاق رسالاته، فكيف يقبل من خاتم المرسلين الذي جمع الله له في رسالته جميع فضائل ومشاق رسالات المرسلين.

فالرسالة إذًا أشرف التشريف البشري فهي أشق مراتب التكليف الإنساني، فالنداء بوصف الرسالة جامع لسمو التشريف ومشاق التكليف.

فإذا جاء بعد هذا النداء الأمر بالتبليغ كان معناه الإيذان بربط هذا التشريف، بتحقيق مضمونه الذي كان مصدر التشريف، فإذا لم يتحقق هذا المضمون فقد ذهب أصل التشريف.

ومعنى هذا أن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: إذا لم تحقق ما كنت به رسولًا، وهو تبليغ جميع ما أنزل إليك من ربك تبليغًا

وافيًا كاملًا لا خوف معه ولا مداهنة لم تكن رسولًا ، وهذا أبلغ مما لو قيل : فإن لم تبلِّغ جميع ما أنزل إليك لم تؤدِّ حقِّ الرسالة ، لأن التعبير القرآني يطوي تحته من الأبعاد والزجر والإرعاب ما تنخلع لهوله القلوب ، مع ما في الإبهام من التهويل المزعج ما لا تحيط به العبارة ولا يؤديه أسلوب غير أسلوب القرآن الحكيم .

وفي إضافة الرسالة في موقع النفي بجواب الشرط إلى ضمير المرسل ما يؤكد الزجر المرعب ، مما جعل النبي ﷺ في أشد الحاجة إلى التلطف الودود ليبعث في نفسه الاطمئنان والسكينة ، فجاء قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وعدًا إخباريًا قاطعًا مسح عن صدره ﷺ آثار الرعب والإيعاد الزاجر .

ولهذا جاءت الروايات كلها على اختلاف أساليبها ومناحيها تصور نفحات التلطف بالبشرى بما أنزل عليه ﷺ من السكون إلى لطف الود الإلهي ، وما استشعرته طبيعة رسول الله ﷺ في جانبيها الروحي والبشري من السكينة وهو في أحضان العصمة الإلهية الشاملة ، فلم يبالِ بخذلان من خذله ولا بنصر من نصره .

من أبطل الباطل ادعاء أن الإسلام تملق الفقراء والمستضعفين:

هذه هي صورة الإسلام ، الدين الذي أرسل الله به محمدًا ﷺ ، فإذا دلف إليه مستجيبًا مؤمنًا به من الفقراء والمستضعفين والموالي والعبيد والرازحين تحت نير ظلم الطغيان المادي الوثني وفجور الشرك مَن دلف إلى ظله الظليل من ذوي الفِطَر

النقية والعقول المستعدة والقلوب المفتوحة لتقبل الهدى والخير والنور من ذوي المكانة والشرف في أقوالهم شبابًا وكهولًا - وهم الكثرة الغامرة في أعداد السابقين الأولين ؛ فَمِن أظْلم الظلم وأفسد المنطق والسفسطة الجوفاء القول على ألسنة أعداء الإسلام من المستشرقين في الغرب والشرق وتلاميذهم من تافهي (التبعيث) من الأحداث المراهقين الذين فقدوا معالم الشخصية الإسلامية ومقوماتها أمام سلطان الإلحاد المضّغن في صدور أساتذتهم(٨)، بأن الإسلام ثورة سياسية استغلت أحوال البيئة العربية الاجتماعية بما كان يسودها من ظلم فادح، يعتمد على اتساع هوّة الفوارق المادية التي لا تتلاقى في مسيرة الحياة، فأسرع إلى اعتناقه المستعبدون للقهر المادي الوثني الظلوم من المستضعفين في أرض العرب، فكانوا نواة دعامته التي قام عليها بناؤه.

وهذه أكذوبة عريضة القفا، زائفة المخبر، خادعة المظهر، بل هي أبطولة نسج خيوطها الحقد الصليبي الأسود، والفجور الصهيوني الحسود، وحاك نسجها الإلحاد الشيوعي الكفور الذي استشرى في هذا العصر، بين المفتونين من مراهقي مثقفي المسلمين.

---

(٨) قوله: (الإلحاد المضّغن) معناه الإلحاد الذي باعثه الكره والبغض المستقر في القلوب، والمضغن من الضِّغن وهو الحقد. (المجلة)

وقـوف الثالوث الإلحـادي المادي أمـام دعوة الإسلام وعدالته:

وهذا الثالوث الخبيث - الصهيونية، والصليبية، والشيوعية - هو الذي يقف اليوم بقوته المادية والفكرية وراء حركات الإلحاد في العالم، ولا سيما العالم الإسلامي في جميع أوطانه، والمسلمون عنه لاهون غافلون، ومهما اختلفت بهذا الثالوث المصالح الشخصية لا يختلف قطُّ في عداوته للإسلام وأهله، وشدة حرصه على إذلال المسلمين في أوطانهم واستعبادهم ماديًا وفكريًا، والاستعبادُ الفكري عن طريق الثقافة التافهة والعلم الجهول أشد من الاستعباد المادي؛ لأن الأفكار إذا استُعْبِدت سهل عليها قبول كل شيء من صنوف الاستعباد الاقتصادي والاجتماعي والخلقي.

فالذين يغترون من قادة المسلمين وحكامهم بالخطب الرنانة والكلمات المعسولة وتأليف الجماعات لخلق جو من التقارب أو المشاركة المصلحيّة بين الحق والباطل مخدوعون، يسوقون أممهم وشعوبهم إلى مجازر الانحلال الخلقي والإلحاد الفكري، حتى يظفر بعقيدة الإسلام ونظمه وأخلاقياته ليقضي عليها بطرائقه الخاصة حتى يسلس له قيادها، وتذوب بين أيديهم عناصر مقوماتها، وتعجز أمام حيلهم وخداعهم مقاومتها، وتستسلم للذل والمهانة والاستعباد المادي والمعنوي، وتنهار شخصيتها في عقيدتها وأفكارها.

وليسمع حكام المسلمين المخدوعون قول الله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(النور: ٦٣)

فالذين يقولون عن عمد وإصرار، أو عن جهل وتقليد أن نواة المجتمع الإسلامي كانت من الفقراء والموالي والعبيد والمستضعفين خاطئون مخطئون، لم يتفحّصوا تاريخ الدعوة الإسلامية، ولكنهم قرءوا هذا التاريخ قراءة اعتمدت على روايات ضعيفة أو باطلة، وقد يكون لسمعة أصحاب الأسماء التي تنتهي إليها تلك الروايات أثر كبير في قبولها، وقد يكون للجهل المعتمد على التقليد أثر في تصديقها والاعتماد عليها.

ومهما يكن من الأمر فإن الدلائل التاريخية الممحصة قاطعة بأن ثلة السابقين الأولين التي كانت دعامة المجتمع الإسلامي في مكة بين أزماتها وشدائدها وفوادح بلائها؛ إنما كانت في كثرتها الغامرة من الأحرار ذوى الشرف والمكانة في منابتهم من قبائلهم وأقوامهم.

وثائق التاريخ أصدق دليل على أن طلائع الإيمان بدعوة الإسلام لم يكونوا من الفقراء والمستضعفين:

وأصدق دليل نسوقه على صدق الواقع ما أجمع عليه الباحثون في السيرة النبوية ورواياتها، وما سجلوه في مؤلفاتهم، وهي

موجودة متعالمة متعارفة، سواء أكانت مما امتدت إليه يد المطبعة فأخرجته إلى النور، وتداولته أيدى القارئين، أم كانت مما لا يزال مخطوطًا في خزائن مكتبات الأفراد والهيئات من إحصاءات لأسماء أولئك السابقين وتقصٍّ لأنسابهم في دقة عجيبة لا تهمل الاختلاف في بعض الأسماء الواردة في سلسلة النسب، رجالًا، ونساء، وقبائل، وأمكنة، وأوطانًا، وموالاة وحِلْفًا وعصبة ورَحِمًا.

وقد بدأت هذه الإحصاءات بأول الأولين، الصدِّيق أبى بكر رضي الله عنه، وبمن رغبهم في الإسلام وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا.

قال ابن إسحاق: لما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله، فأسلم على يديه: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فأسلموا.

ثم قال ابن اسحاق: ثم أسلم أبو عبيدة، واسمه عامر بن عبد الله بن الجراح، ثم أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد، والأرقم بن أبى الأرقم، وعثمان بن مظعون، وأخواه: قدامة وعبد الله ابنا مظعون، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وسعيد بن زيد، وخبّاب بن الأرت، وعمير بن أبي وقاص، أخو سعد، وعبد الله بن مسعود، ومسعود بن القاري، وسُلَيط بن عبد شمس، وعيّاش بن أبى ربيعة، وخُنيس بن حذافة بن قيس، وعامر ابن ربيعة، وعبد الله بن جحش، وأخوه أبو أحمد بن جحش، وجعفر بن أبى طالب، وحاطب بن

الحارث بن معمر، وأخوه خطاب بن الحارث، ومعمر بن الحارث بن معمر، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمطّلب بن أزهر بن عبد مناف، والنحام نعيم بن عبد الله، وعامر بن فهيرة، مولى أبى بكر، وخالد بن سعيد بن العاص، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، وأبو حذيفة، واسمه مهشم، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف، وخالد، وعامر، وعاقل، وإياس، بنو البكير بن عبد ياليل، وعمّار بن ياسر، وصهيب ابن سنان.

هؤلاء خمسة وأربعون رجلًا، معهم عشر نسوة من المسمين بأنسابهن وبيوتهن وقبائلهن زوجات لبعضهم.

وأكثر هذا العدد قرشيون صليبة، وقليل منهم حليف لبعض بطون قريش، وأقل من القليل من يعد من الفقراء والمستضعفين.

وقد ذكر النويري في (نهاية الأرب) أسماء عدد ممن لهم سابقة إسلام وهم من غير قريش، ونسبهم إلى قبائلهم، فذكر منهم أبا ذر وأخاه أنيسًا الغفاريَّين، وعتبة بن غزوان المازني. وعمرو بن عبسة السلمي وهو قديم الإسلام، وكان يقول: رأيتني وأنا رَبَع الإسلام[٩]، وقد سأل النبي ﷺ ومن معك على هذا الأمر؟ فقال له: (حر وعبد) يعني أبا بكر الصديق، وبلالًا.

والمقصود أن دعائم المجتمع الإسلامي الأول لم يكونوا من الأحداث والموالي والعبدان، والفقراء والمستضعفين، ولكنهم

(٩) رَبَع بمعنى: رابع أربعة. (المجلة)

كانوا من أشراف بيوت قريش وغيرها من قبائل العرب، وكان فيهم شباب تجاوز سن الحداثة، فإذا رأينا في بعض مؤلفات السيرة النبوية رواية تتعارض مع الواقع الإحصائي الذي أجمع عليه العلماء والرواة كان من غير المستقيم مع طرائق البحث العلمي الممحّص أن توضع تلك الرواية الموهمة الواهمة في ميزان – وهي لا تستعصي على التأويل – مع هذه الاحصاءات الثابتة الدقيقة.

ومن هذه الروايات الموهمة ما ذكره ابن سعد في الطبقات عن الزهري قال: دعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام سرًا وجهرًا، فاستجاب لله تعالى من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن بالله.

ويمكن أن يكون مراد الزهري – إذا صحت الرواية عنه – بأحداث الرجال شبابهم ممن كانوا دون الكهولة، وكانوا يعيشون بمعزل عن مجتمعات ملأ قريش، وهم حمولها وشيوخها ومجالسهم المليئة بالهُجر والفحش.

ويكون مراده بضعفاء الناس من تحرر من أبناء أشراف القوم عن ربقة عبودية ذل الانسياق إلى الأباطيل وترّهات الوثنية البليدة التي نسج بردها تقليدُ الآباء والأسلاف ممن عسا في جهالات الشرك(١٠)، ومهاوي الوثنية بعد إذ تبين لهم الحق في دعوة التوحيد، فاستجابوا لله تعالى وتركوا سلطان آبائهم وثرواتهم، ورضوا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبرسول الله ﷺ هاديًا ومرشدًا

(١٠) يقولون: (عسا في كذا) كبر فيه وشاخ. (المجلة)

ومتبعًا، يرضون بما رضي به من التسامي عن متع الحياة الدنيا، واستغراقه في الدعوة إلى الله تعالى، وهداية الخلق وإصلاح مفاسد الحياة.

على أن في إسراع الشباب إلى الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ تناسبًا طبيعيًا يلائم أشد الملاءمة حال رسول الله ﷺ في سنه يوم بعث رسولًا ودعا الناس إلى الإيمان برسالته، وتصديق دعوته، دعوة الحق والهدى والنور والعزة والكرامة.

فقد كان ﷺ في عنفوان شبابه، كما قال عن نفسه ﷺ يوم جمع بطون قريش لينذرهم استجابة لقول الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤) «ما أعلم شابًا جاء قومه بأفضل مما جئتكم، لقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة».

وكان كهول قومه، وشيوخ قريش إذا مرّ بهم في مطلع رسالته قبل أن يباديهم بعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، وقبل أن يشنفوا به ويعالنوه بالعداوة يشيرون إليه قائلين - كما يرويه الزهري - إن غلام بني عبد المطلب لّيُكلَّم من السماء.

وهكذا كان سير الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته متدرجًا مع الحياة في مدارج الزمن بدءًا في مهدها كما يبدأ كل حي، ونموًا في مسيرتها كما ينمو كل صغير فيكبر، ويشتد ساعده، ويقوى ساعيًا ألوفًا لما يلائمه ويكون على شاكلته.

فإذا أسرع الشباب مقبلًا على الإيمان بدعوة الإسلام فكان درعًا حصينة لها وعضدًا قويًا للرسول ﷺ على نشرها، وهي

لا تزال في مطلعها، حافِّين به، سامعين له، مهتدين بهديه، كان ذلك دليلًا على أن هذه الدعوة الهادية المصلحة إنما تؤثر بهدايتها في القلوب المستعدة لتقبل الخير، والفِطَر الصافية التي لم تصدأ مرآتها، ولم تلوَّث بأوضار الترسب الوثني الموروث عن الجاهلية وقبائحها، وتلك هي قلوب الشباب الشابة، التي وجدت فيها دعوة الإسلام أرضًا خصبة لا يعوقها عن قبول البذر، وإنباته خبثُ سطح التربة ونشع الماء، وتعفن النزيز من طول مكثها دون تحريك وتقليب يعرضها للتطهير من جراثيم العقم والفساد.

أما الذين اسودّت قلوبهم، وصدئت فِطَرهم، وأظلمت أرواحهم، وتبلّدت إحساساتهم برشح الوثنيات من الكهول والشيوخ الذين قوّست حياة الجاهلية بأوزارها ظهورهم، فأولئك هم الذين ناصبوا دعوة الحق والتوحيد والهدى والنور -العداوة، وأضمروا لها البغضاء، وشمّروا لمقاومتها؛ لأنهم فقدوا صفاء الفطرة التي كانت هي الوسيلة الوحيدة للملاءمة بينهم وبين استجابتهم لما دعاهم إليه رسول الله ﷺ من الخير، فأعرضوا وتولوا عنها مدبرين، وثنُوا أعطافهم مُشيحين، استكبارًا في الأرض حتى قضى الله فيهم أمره، فهدى منهم من شاء بفضله، بعد أن محصتهم الأحداث وصهرتهم الوقائع، فدخلوا في الإسلام طائعين نادمين على ما فاتهم من فضل السبق إليه، وأضلّ منهم من شاء بعدًا له، فكانوا هم الأخسرين، ولكن الله تعالى استخرج من أصلابهم من استودعها من أبطال الإسلام وقادة جهاده وجند كتائبه.

واستقام ميسم الدعوة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا شيبًا وشبابًا، أحرارًا وعبدانًا، رجالًا ونساء، وبقي للسابقين فضل السبق الذي لم يلحقهم في فضله من جاء بعدهم ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (النساء: ٩٥)

خصائـص مميزة للمجتمع المســلم ملأت قلوب أعدائه غيظًا عليه

وفي ظل العزائم القوية الماضية مضت مسيرة دعوة الإسلام وتبليغ رسالته غير مبالية بما يلقى المجتمع الإسلامي من المحن وفادح البلاء، مما بلغ بالدعوة مبلغًا أضفى على المجتمع الإسلامي خصائص ميزته وحددت كيانه، وأبرزت شخصيته العارمة القاهرة التي ملأت صدور ملأ الطغيان من المشركين وعبيد الوثنية البليدة غيظًا حاقدًا، وحقدًا مغيظًا، دفعهم إلى فجور العتو الحانق وإلى عناد الاستكبار المغرور.

بيد أن هؤلاء المشركين من عبيد الوثنية المادية وجدوا متنفس أحقادهم في أن يصبُّوا ثمالتها في القضاء على حياة المسلمين الاقتصادية، بعد أن عجزوا أن ينالوا من إيمانهم بعقيدتهم التوحيدية شيئًا بما أنزلوه بهم من قسوة الإيذاء، وفجور التعذيب الذي كان يزيد المسلمين قوة في رسوخ إيمانهم وشدة في تمسكهم بدينهم وإسلامهم.

والمتأمل في تتبع حال الرعيل الأول من السابقين يعلم أنهم كانوا يحيون حياة اقتصادية تتمثل في التجارة والعمل الذي كانوا

يكسبون به أرزاقهم، ولم يعرف أن أحدًا منهم كان عاطلًا يتكفَّف الناس، وقد كان هذا الجلد في العمل أغيظ لفجَّار الشرك وأشجى لملأ قريش، فوجهوا إليه نفوسهم الشريرة نهبًا وتكسيدًا وإعاقة.

روى البخاري ومسلم، وأحمد وغيرهم عن خبّاب بن الأرت قال: كنت رجلًا قينًا وكان لى على العاص بن وائل دَيْن فأتيته أتقاضاه، فقال: لا والله، لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، فقال: إنى إذا مت ثم بُعثت جئتني ولي مال وولد فأعطيك. فأنزل الله ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾

(مريم: ٧٧- ٨٠)

وفي قصة هجرة صهيب رضي الله عنه أنهم لم يتركوه يهاجر حتى شرى نفسه منهم بجميع ماله، وفيه أنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (البقرة: ٢٠٧)

وفي قصة هجرة عبد الله بن جحش وأخيه عبد بن جحش المكنى بأبي أحمد وآلهما رجالًا ونساء هجرة موعبة واستيلاء أبي سفيان بن حرب على دورهم لأن بنته الفارعة كانت تحت أبى

أحمد بن جحش، ما يدل على حالة المسلمين الاقتصادية، ويدل على مبلغ الظلم الذي ادَّرعه الظالمون من فجار الكفر في نهب أموال أولئك المسلمين.

قال ابن حزم في كتابه (جوامع السيرة): فعدا أبو سفيان على دارهم فتملكها إذ بقيت يبابا لا أحد بها.

وقال ابن إسحاق: ثم هاجر عبد الله بن جحش، واحتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش، وهو أبو أحمد، وكان رجلًا ضرير البصر، وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد، وكان شاعرًا وكانت عنده الفارعة ابنة أبى سفيان بن حرب، وكانت أمه - أى أبى أحمد - أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، فغلقت دار بنى جحش هجرةً، فمر بها عتبة بن ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة، وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يبابًا، ليس فيها ساكن، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال:

وكل دار وإن طالت سلامتها يومًا ستدركها النكباء والحوب

ثم قال أصبحت دار بنى جحش خلاءً من أهلها.

ولم يقف إجرام ملأ قريش عند الحد في حربهم الاقتصادية للمجتمع الإسلامي، بل كانوا يتتبعون الوافدين إلى مكة يحذرونهم لقاء رسول ﷺ والدخول في دينه، ويهددونهم بتكسيد تجارتهم إن كانوا تجارًا ويغرون بهم سفهاءهم.

قال ابن إسحاق: وكان أبو جهل الفاسق هو الذي يغري بهم في رجال من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعة

أنَّبه وأخزاه، وقال له: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك ولنفيلن رأيك، ولنضعن شرفك، وإن كان تاجرًا قال: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به.

وكأنما رأت قريش أن هذه الحرب الاقتصادية الفردية التي يتتبع فيها الأفراد في وسائل كسبهم وأرزاقهم في التجارة وغيرها من الأعمال لم تُجدِهم نفعًا، ولم تفت في أعضاد المسلمين، ولم تثنِ من عزائمهم ولا أضعفت من قوتهم في التمسك بعقيدتهم ورسوخ يقينهم، تداعت إلى التي لا شوى لها(١١)، وتنادت إلى عظيمة العظائم، قاصمة الظهور، ومزلزلة النفوس، وخالعة القلوب من مثاوي حنايا أضلاعها، تلكمُ هي آخر ما بقي في كنانة مكرهم من سهام الفجور العنيد.

فتجمع ملأ قريش ممن نخر سوس الفناء أدمغتهم، وقوس ظهورهم، فائتمروا وفكروا وقدروا، وتوهموا وتخيلوا، وهاموا في أودية العتو الفاجر، وانتهى بهم مكرهم إلى أن يسدوا على المسلمين جميع طرائق الحياة التي تصلهم بالناس، ويحاصروهم حصارًا جماعيًا خانقًا، يمنعونهم فيه من أى معاملة مع أحد، في تجارة أو عمل، فلا يبايعوهم ولا يناكحوهم، ولا يأخذون منهم ولا يعطونهم، حصارًا لا يفرق بين الرجال والنساء والأطفال، حصارًا يمنع فيه كل مسلم وكل إنسان يتعاطف مع المسلمين وهو على

(١١) يقولـون: رمى فأشـوى إذا لم يُصِـب المقتل، والحرب التي لا شـوى لها هي التي تصيب الكل فلا ينجو منها أحد. (المجلة)

شركه ووثنيته من مباشرة أى حركة حرة، تكون مصدرًا لكسب أو عمل، حتى يفقدوهم كل أمل في الحياة، وحتى يتبدد ما في أيديهم من مال أو متاع.

وكان هذا الائتمار أخبث ما وصل إليه خبث الفجور؛ لأنه قتلٌ لأمة من الناس بالجوع والعري والإظماء، لا رحمة فيه لشيخ هرم، ولا لامرأة ضعيفة، ولا لطفل رضيع، ولا لعاجز مريض، ولا تحركت فيه عاطفة قرابة أو نخوة مروءة، فكان عملًا جنونيًا يشمئز أحط الحيوانات منه.

وعلم النبي ﷺ بهذا الائتمار الخبيث، وقدر عواقبه الوخيمة، فأشار على أصحابه بالهجرة الثانية إلى الحبشة ليتخفف من أعباء شغل فكره بحمايتهم وتدبير أمورهم، ولينشروا دعوة الحق وهم آمنون، فهاجر إليها من استطاع منهم، وكان هؤلاء كثرة من أشراف بيوتات قريش بزعامة جعفر بن أبي طالب، وكانوا أكثر من مئة من الرجال، ومع بعضهم زوجاتهم، وكان من أثر هذه الهجرة العظيمة في نشر الدعوة ما ذكرناه مفصلًا في مناسبته عند الحديث عنها، مما دللنا به على أن هجرة أصحابه ﷺ لم تكن فرارًا ولا هربًا، وإنما كانت نوعًا من الانسياح في الأرض لتبليغ الرسالة.

وبقي بمكة مَن بقي مع النبي ﷺ، الذين دخلوا معه حصار الشِّعب وأقاموا به ثلاث سنين، لا يصل إليهم شيء ولا يصلون إلى شيء، وظلوا معتصمين بالجلد والصبر حتى فرج الله عنهم، وخرجوا منه كرماء أعزاء، وقد خزيت قريش وملؤها من أهل الفجور.

وبُعيد هذا الحصار القاطع لصلات الأرحام مات أبو طالب، وماتت بعده بأيام السيدة الجليلة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، فحزن النبي ﷺ حزنًا شديدًا، وضاقت عليه مكة، فذهب إلى الطائف لعله يجد لدعوته سميعًا، ورجع منها مكلوم الفؤاد لما لقيه من أذى، ولكنه ﷺ لم يفتر قط عن نشر دعوته وتبليغ رسالته.

وقد تلطف الله تعالى بنبيه ﷺ ليمسح عن صدره آلام لقاء الطائف ويخفف عنه حزنه على زوجه وزيرة الصدق له، وعلى عمه الذي ظل حادبًا عليه، مانعًا له من سفاهة قومه وإيذائهم، فأرسل إليه ذخيرة الغيب في حمل لواء الدعوة ونصرتها وتمت بيعات الأنصار، بيعة إثر بيعة حتى ختمت ببيعة (فتح الفتوح) التي فتح الله بها باب الهجرة إلى المدينة المنورة، فهاجر إليها الصحابة تاركين وراءهم ديارهم وأموالهم وعشائرهم، وموارد كسبهم، مضحين بكل ذلك في سبيل عقيدتهم ودينهم ورسالة نبيهم ﷺ.

كانت الهجرة النبوية ضرورة اجتماعية تتطلبها حماية المجتمع المسلم:

أفكان من الخير للدعوة الإسلامية أن يبقى رسول الله ﷺ بعد تمثل هذه الصورة التي تجوزنا في تصويرها لعوامل الهجرة النبوية السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مكة وحيدًا بعد هجرة أصحابه من السابقين الأولين، وهم مرملون فقراء لا يجدون في

أيديهم سبدًا ولا لبدًا[١٢]، ولا يملكون من حطام الدنيا شيئًا، والفقر فتنة تُخشى بوائقها لا سيما إذا كان فقرًا مفروضًا بقهر العتو والجبروت وطغيان العناد الفاجر ونهب الأملاك، واغتصاب المرافق، وتعطيل الأعمال؟

وإذا بقي رسول الله ﷺ في مكة دفعًا لتوهم المتوهمين أن هجرته ﷺ إنما كانت خوفًا على نفسه، وفرارًا من أعدائه، وهربًا من الإيذاء، والبلاء، فماذا كان يمكنه أن يصنع لنشر دعوته وتبليغ رسالته في جو مكة الخانق المظلم؟ وماذا يكون حال أصحابه الذين سبقوه بالهجرة وهم ينتظرون قدومه على مهجره ليقود مجتمعهم ناشرًا دعوته مبلغًا رسالة ربه.

أويكون من الخير للدعوة ونشرها، وتبليغ الرسالة ودفعها إلى الأمام في سيرها أن يترك رسول الله ﷺ هؤلاء النخبة الذين رباهم بآيات التنزيل، وأدَّبهم التأسي به ﷺ حتى جعل من كل فرد منهم أمة في إهاب رجل، يهاجرون دون أمل يستشعرون معه أن هجرتهم لم تكن صيحة في وادي الضياع؟

أويترك أولئك الغر الميامين من أبناء (يثرب) الذين بايعوه على أن يكونوا ذادة وحماة له، ولدعوته، وجندًا في كتائب رسالته، يفدونه بأرواحهم وأموالهم أنصارًا لله ولدينه - نهبًا للظنون والأوهام والتخيلات، وهم أحوج ما يكونون إليه قائدًا مربيًا، يربيهم كما ربى إخوانهم المهاجرين الأولين من قبل،

---

(١٢) السَبَدُ الشَّعر واللّبد الصوف، وحين يقال عن شيء: إنه لا يُبقي سبدا ولا لبدا، فالمعنى أنه لا يبقي شيئا. (المجلة)

ويرعاهم بحكمته، وينظم مجتمعهم في تركيبه الجديد؟

إن المجتمع الإسلامي بتأليفه الجديد في أشد الحاجة إلى قائده، يمضي به قدمًا وبيده زمام مسيرة رسالته إلى آفاق الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها، يرعاه وحي الله مسددًا هاديًا، مؤدبًا مربيًا.

فهل غير رسول الله ﷺ يستطيع أن يحمل أمانة هذه القيادة بخصائصها النبوية المميز بها، وحقيقتها العليا التي تعتمد كل الاعتماد على توجيه الله وإرشاده، وأمره ونهيه، وتعليمه، ورعايته.

إذن فليمضِ القائد النبي ﷺ والرسول الأمين على بركة الله إلى هجرته ليعتلي ذروة سنام مسيرة رسالته، غير خائف أحدًا من الخلق، ولا مبال بما لقي ويلقى في سبيل تبليغ ما أنزل إليه من ربه، ومن حوله المجتمع الإسلامي حافين به، مرهفين آذانهم لتلقف كل ما ينطق به من حكمة وموعظة، فاتحي قلوبهم لتلقي معاني كلمات الله يرتلها على مسامع الدنيا، ويتعرفوا إلى حقائق رسالته في حركاته وسكناته، عملًا في واقع الحياة.

أَوَلم يكن من الضروري أن يهاجر رسول الله ﷺ ليتدارك بحكمته وحسن سياسته ومكارم أخلاقه، وتسديد الله له بعونه وتوفيقه نفوس هؤلاء الصفوة وهم من الشرف بين أقوامهم في الذروة، ليكون بينهم يتأسون به، ويقتدون بأحواله في تقلله من الدنيا وأسبابها، وبذله نفسه في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته، حتى يرسخ في أفئدتهم أن الهجرة ضرب من التضحية في سبيل

هدف أجل وأعظم من الثروات والأوطان والأهل والعشائر؟

أَوَلم يكن من موجبات سير الدعوة إلى الأمام أن يهاجر رسول الله ﷺ إلى مجتمعه الإسلامي الذي يتألف من عناصر متوافقة في العقيدة ورسوخ الإيمان مختلفة في وسائل الاستقرار والعيش، فالأنصار مستقرون في بلدهم، وبين أيديهم ثرواتهم يثمرونها بطرائقهم في الزراعة والتجارة، والمهاجرون طارئون عليهم، وليس في أيديهم من حطام الدنيا قليل ولا كثير، وهم إذا كانوا قد وجدوا من كرم الأنصار ما فاق كل كرم عُرف بين الناس من قبل ومن بعد، مما أنساهم آلام فراق أوطانهم والتأسف على ضياع ما كان لدى كثير منهم من ثروات وأموال، لكن ذلك كان دفعًا لحاجة الوقت لا تطمئن إلى الرضى به النفوس الأبية سبيلًا دائمًا للحياة، فالأمر ليس أمر سد خلة موقوتة، ولا أمر إحسان إن فقد التحديث بالمنة فيه، فإنه لم ولن يفقد الشعور بهذه المنة وهي أسر الأحرار.

استقرار المجتمع المسلم سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا هدف من أهداف الهجرة:

وإنما الأمر أمر مجتمع يجب أن يستقر على صورة من النظام الاجتماعي الدائم الذي تمتزج خصائصه المادية والمعنوية فتصبح عنصرًا واحدًا، تقوم عليه شخصية المجتمع الموحد في عقيدته وتعبداته وأنظمته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والسلوكية والتربوية المتلقاة من وحي الرسالة كتابًا منزلًا، وحكمة ملهمة، وقدوة عملية؟

بلى إن ذلك كان من موجبات الدعوة وتبليغ الرسالة وتلقي الوحي، وتنظيم المجتمع على أسس من الاستقرار الاقتصادي مع الاستقرار الاجتماعى والسياسي تنظيمًا لا يقف عند مشارف العدل الرحيم، والإِيثار الكريم، وإنما يجب أن يكون تنظيمًا يرد رحمة العدل وكرم الإِيثار إلى حق المشاركة الواجبة في العمل وأسبابه ومسبباته مشاركة لا تستشعر الامتنان، ولكنها مشاركة يشعر كل فرد فيها بحق من يستمد قوته من المشاركة في العمل والتثمير والإِنتاج، ووحدة الإِخاء.

وكان ما أراد الله وما أمر به نبيه ﷺ تحقيقًا لمقتضيات صيانة المجتمع وحفظ خصائصه ومميزاته المقومة لحقيقته. وهاجر النبي ﷺ وتلقاه مجتمعه بالحب والاعتزاز والطاعة ، وحفّ به مجتمعه، وألقى إليه تقاليد تنظيمه في حربه وسلمه على أسس ودعائم اشتركت في إرسائها القوة الذاتية لهذا المجتمع النابعة من أصالة التشريع المرتبط بالعقيدة التوحيدية، ورسوخها في منازل اليقين، ومن المرونة الموائمة للحياة المستمدة وجودها من عموم الرسالة وخلودها لتكون رسالة كل جيل في كل زمان ومكان.

هذه هي في إيجاز عوامل الهجرة النبوية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تفجرت منها دوافع هذه الهجرة المباركة، وتمت على أسسها وأصولها وتحققت بها أهدافها.

كيف بدأت هجرة النبي ﷺ تحقيق يكشف غموض بعض الوقائع والروايات

كانت الصورة البارعة التي تم بها إنجاح هجرة أصحاب النبي ﷺ المستوعبة لجماهيرهم أفرادًا وجماعات إلى المدينة المنورة - حيث إخوانهم الأنصار - أغيظ شيء مسّ قلوب المستكبرين من طغاة المشركين وملئهم، وأوجع ما نغلَ أفئدتهم، ونكأ جراحهم الممدة[١٣]، بيعةُ (فتح الفتوح) وهي البيعة الكبرى التي بايع فيها زعماء الأنصار وممثلوهم السبعون رسول الله ﷺ على أن يمنعوه مما يمنعون من أزرهم، ويحمونه ودعوته من كل قوة بشرية تناوئه أو تقف أمام تبليغ رسالته من الأحمر والأسود، فجن جنون الفجار من سدنة الشرك وعبيد الوثنية وطواغيتها في مكة؛ لأنهم أحسُّوا أن أرض عتوهم الفاجر تميد تحت أقدامهم، وأن دعوة التوحيد والعدل التي جاء بها محمد ﷺ قد وجدت في (يثرب) مستقرًا آمنا، وأنصارًا تُخشى بوادرهم، وقوة قاهرة غلابة، أرعبتهم، وتخوفوا عواقب مواجهتها، فسقط في أيديهم، وعضوا أنامل الغيظ، ورأوا أنهم قد ضلُّوا في ضلالهم، وفجروا في طغيانهم، وخسروا معركة الوثنية المادية البليدة أمام دعوة الحق والتوحيد والعدالة والحرية والمساواة والإخاء منذ اليوم.

ورأوا أن محمدًا ﷺ سيلحق بأصحابه ليجمع أمره ليستأصل

(١٣) نغل الجلد فسد عند دباغة، ونغل قلبه على فلان تحوّل عنه وكرهه. (المجلة)

شأفتهم، ويقضي على تشامخهم واستكبارهم ليطهر أرض البلد الحرام من أرجاسهم، وإذن فما بقاؤهم في الحياة، وخير لهم أن يموتوا بغيظهم، ويتوسّدوا القبور لتغطي خزيهم الذليل.

إن ذلك إذا تم أصبحت مكة وطغاة قريشها بين عشية وضحاها في قبضة يده ويد أصحابه الذين عذبوهم عذابًا لا طاقة لبشر على احتماله والصبر عليه، يأخذونهم كما يأخذ الإعصار القاصف أعجاز النخل الخاوية، فيبيدونهم كما يبيد السيل الجارف فقاقيع النزيز الطافية على أخابث النشع لتطهير الأرض من أوضار التعفن الوبيء، الذي أفسد فطرهم وأسقم قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

حذرت قريشٌ وفجارُ ملئها خروجَ رسول الله ﷺ من مكة لئلا يصل إلى أنصاره حيث القوة والمنعة والإيمان والفداء والتضحية والبطولة وصدق الإخلاص لدعوته، فعرفوا أنهم مأكولون بسيوف المهاجرين والأنصار، يمضغونهم كما تمضغ الرحى هريس الطحين لو أن محمدًاً ﷺ وصل إليهم، وأمسك بيده زمام قيادهم، وأحكم بسياسته نظام مجتمعهم القوي الرهيب.

تداعي طغاة قريش للمكر بالنبي ﷺ والتآمر على قتله:

فتداعى ملأ قريش ليأتمروا، وتنادوا ليمكروا، واجتمعوا ليتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ، واتعدوا يومًا سموه يوم

(الزحمة)[١٤]، لتزاحمهم بغوغائهم ورعاعهم وأراذل سفهائهم انتظارًا لما ينتهي إليه أمر أشرافهم.

وقد ذكر ابن دحية في المولد أن المجتمعين في دار الندوة كانوا مئة رجل وذكر ابن دريد في الوشاح - كما نقله الزرقاني - أنهم كانوا خمسة عشر رجلًا.

والظاهر أن هذا ليس اختلافًا، وإنما ذكر ابن دحية العدد الذي اشترك في المشاورة، وذكر ابن دريد العدد الذي وقع عليه اختيارهم لتنفيذ ما ائتمروا به من قتل النبي ﷺ، وهؤلاء الذين يمثلون بطون قريش وقبائلها عملًا برأي غميز الرجولية الفاسق أبي جهل ورأي شيخه النجدى المتأبلس، حينما تداولوا الرأي فيما يدفعون به هذه النازلة التي أشجتهم وأخذت بحلاقيمهم، وكتمت أنفاسهم وأحاطت بهم لتقضي عليهم قضاء مبرمًا يذهب بأمجادهم الجاهلية الوثنية، وتنهار تحت معاولها مفاخرهم المادية، وقال بعضهم لبعض وهم يمكرون: إن هذا الرجل - يقصدون محمدًا ﷺ - قد كان من أمره ما قد رأيتهم، وإنا والله لا نأمنه على الوثوب علينا فيمن تبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيًا. ودارت مشاوراتهم حول ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى تذكيرًا وامتنانًا على عبده ورسوله بنعمته: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٠).

(١٤) اتّعَدَ من الفعل (وَعَد). يقولون: وعده فاتّعد أي وثق في الوعد. (المجلة)

وتقول روايات السير بما يشبه الإجماع إن إبليس حضرهم في ائتمارهم وكان مقرر حشدهم، يزيف ما لم يعجبه من آرائهم، ويمتدح ما يوافق خبثه ونجيس إجرامه، وكان حضوره متخفيًا ليضلل غوغاءهم في صورة أعرابى غريب عليهم على هيئة شيخ نجدي، فلما رأوه واقفًا على باب دار ندوتهم قالوا له: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتّعدتم عليه فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أَلا يعدمكم منه رأيا ونصحًا فقالوا له في بلاهة حمقاء وتلهف مستنجد: أجل فادخل، فدخل معهم، وتولى إدارة أحاديثهم، فكان يسمع ويفند، حتى إذا انتفخ سحر فاسقهم غميز الرجولية أبي جهل، فتثاءب وتمطى، وتنفس حقدًا فاجرًا ومال بكلكه على شيخه النجدي المتأبلس ليتلقى وحيه بعد أن فنّد جميع ما قال القوم من فجور، ثم قال أبو جهل: والله إن لى فيه رأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد.

قال القوم في لهفة الغريق المستنجد بقشة تتقاذفها الأمواج العاتية: وما هو يا أبا الحكم؟ قال - وشيخه النجدي المتأبلس يضحك ساخرًا وينظر إلى غميز الرجولية بنظرة متعابثة، ويرد عليه غميز الرجولية نظرته بنظرة من جنسها - وكأنما يقول له: عفوًا شيخ نجد، منك وإليك، ويقول غميز الرجولية بعد هذه المهارشة العابثة بينه وبين شيخه النجدي المتأبلس: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شابًا، جليدًا، نسيبًا، وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة

رجل واحد، فيقتلوه، فيتفرق دمه في القبائل جميعًا، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا فيرضوا منا بالدية والعقل فنديه ونعقله لهم.

فقال شيخه النجدي المتأبلس منتفجًا مأخوذًا إعجابًا وفخرًا برأي ربيبه وتلميذه غميز الرجولية الفاسق أبي جهل: الرأي ما قال الفتى، هذا الرأي، لا أرى غيره، وتفرقوا على ذلك وأخذوا يعدون العدة لتنفيذ ما مكروا به.

ونحن لا نقيم وزنًا لأبلسة الشيخ النجدي وسواء لدى البحث أكان هذا المتأبلس شيخًا نجديًا من أناسي نجد - وكان صفوهم مع أعداء رسول الله ﷺ - أم كان إبليس عينه تزيا في هيئة شيخ نجدي أم لم يكن الذي توهموه شيئًا، وإنما هو صورة انتزعها من الوهم المتخاذل بعض من مسهم الشيطان فتخيل وخال، وزعم وتقول، فالمسألة لا تتغير معالمها الحاقدة المستخذية، وليس بين الصدق والكذب عند عقلاء المجانين ومجانين العقلاء حاجز يفصل بينهما، فصدقهم كذب، وكذبهم ضلال وتمويه، وقدرة الله تعالى لا يتعاظمها شيء، والأمر متمكن في دائرة الإمكان قد يكون مما كان، وربما لم يكن قد كان، لأنه لم يثبت فيه خبر صحيح عن رسول الله ﷺ، وكان ما جاء فيه رواية مرسلة عن ابن عباس لم يثبت لها سند يمكن التشبث به والاعتماد عليه، ومهما يكن من أمر فقد انتخب الملأ من قريش بعض طواغيتهم ممن يمثلون قبائلهم لينفذوا ما اجتمعت عليه كلمتهم من الفجور الفاجر، فاختاروا خمسة عشر رجلًا في رواية، أو خمسة رجال

في رواية أخرى كان قائدهم فتى إبليس وربيبه، غميز الرجولية الفاسق اللعين أبا جهل.

قال الزرقاني: في خلاصة الوفاء: وصوّب إبليس قول أبي جهل: أرى أن يُعطى خمسة رجال من خمس قبائل سيفًا فيضربوه ضربة رجل واحد.

ثم أراد الزرقاني أن يوفق بين رواية خلاصة الوفاء وغيرها من الروايات القائلة بتخير فتى من كل قبيلة يعطى سيفًا صارمًا، فيضربونه ضربة رجل واحد، فقال الزرقاني في توفيقه: فلعلهم استبعدوا عليه قوله من كل قبيلة، إذ لا يمكن عشرون مثلًا أن يضربوا شخصًا ضربة واحدة، فقال لهم: خمسة رجال.

وهذا التوفيق ينظر إلى حرفية العبارة، وليس المقصود أن تقع الضربة من الجميع، وإنما المقصود أن يشترك جميع الممثلين للقبائل في ارتكاب الجريمة، سواء أوقعت الضربة منهم أو من بعضهم دون أن يعرف الضارب بشخصه وعينه، فتنسب الجريمة إلى الجميع متقاسمين فجورها فيما بينهم على سواء.

ومن أغرب ما ذكر في هذا المقام أن القسطلاني في المواهب فرض عدد الذين تربّصوا على باب النبي ﷺ للوثوب عليه وهو نائم على فراشه ليغتالوه مئة رجل، واستشكل ذلك برواية ابن أبي حاتم التي صححها الحاكم من حديث ابن عباس، قال: (فما أصاب رجلًا منهم حصاةٌ إلا قُتِلَ يوم بدر كافرًا)[١٥] قال القسطلاني

(١٥) يشير إلى المذكور في كتب السيرة من أن النبي ﷺ وضع ترابا على رءوس من كانوا ينتظرون خروجه ليقتلوه. وكان في التراب حصى. (المجلة)

في دفع هذا الإشكال المتوهم: لا يشكل على القول أنهم كانوا مئة وقتلى بدر سبعون، لجواز أن يكون التراب الذي كان بيده ﷺ فيه حصى فما أصابه الحصى قتل، ومن أصابه التراب لم يقتل.

وهذه توهمات لا حقيقة لها؛ لأن الذين قالوا: إن العدد كان مئة رجل لا يعنون العدد الذي اختير لتنفيذ المؤامرة، فتربصوا على باب النبي ﷺ يتحينون غِرة ليثبوا عليه وهو نائم على فراشه، وإنما يعنون العدد الذي اشترك في المشاورة في دار الندوة.

أما العدد الذي انتخب للتنفيذ فكانوا خمسة عشر رجلًا، أو خمسة رجال على الروايتين السابقتين، لأن قبائل قريش وكبار بيوتاتها لا تبلغ عدد المئة لتنفيذ الجريمة النكراء، ولأنه يبعد جدًا اجتماع مئة رجل على باب النبي ﷺ لقصد اغتياله، ولا يشعر بهم آل النبي ﷺ من بنى هاشم، وبيوتهم متداخلة ومتقاربة من بيت النبي ﷺ، ويكاد يكون محالًا أن آل بني هاشم كانوا على علم بهذه المؤامرة الفاجرة، وهذا التربص الخبيث ثم تركوا المتآمرين المتربصين دون أن يتعرضوا لهم بشيء من الممانعة والتحرش بهم ومقاتلتهم.

ولما استقر أمر المتآمرين على إطفاء أنوار شمس الحياة بنفخة من فجور أحقادهم وعتوا في طغيانهم جاء جبريل إلى النبي ﷺ وأخبره بالقصة، وقال يبلغه عن الله تعالى: «لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي تبيت عليه».

وأقبل الليل زاحفًا على آفاق الحياة يلفها بثوبه القاتم، كأنه يحبو في زحفه، وثقل خطوه حبوًا يجر به أذياله، والعتمة

بظلالها على الأرض متهامسة بأصوات كفحيح الأساود في كهوف الجبال المستعرة بفيح جهنم، وأشباح الحياة قد ابتلعها الظلام في جوفه، ونام الكون في مهاد الرعب الأخرس، وأقبلت الشياطين بحفيف أجنحة من اللهب الأسود يقودون المتربصين بالحياة في نبضها المتوثب ليئدوها وقلوبهم من الهلع واجفة، وأبصارهم من الرعب زائغة.

وحطت بهم الشياطين على باب محمد ﷺ يرصدونه حتى ينام ليثبوا عليه ويقتلوه.

يا لهول الحياة؟! تكاد السموات يتفطرن، وكادت الجبال تخر هدًا! أيقتل محمد الهادي ﷺ في لحظة واحدة بضربة واحدة، وتنشق الأرض، وتتناثر الكواكب، وتنتهي الحياة إلى ظلام مفرِّغ، لا يعلم له أول ولا آخر من قبل أن يقضي الكتاب أجله، ولما يبلغ محمد الهادي ﷺ رسالته الهادية الخالدة؟! لا، لا، ولينقشع هذا الكلام، ولتبرز الحياة، ولتشرق الشمس، وليبلغ محمد الهادي ﷺ رسالته الهادية، ولتبلغ أجلها من الخلود، ولتذهب شراذم الشياطين وربائبهم إلى أودية الجحيم مشيعة مع إبليسها بلعنات الله تعالى وخزيه إلى أبد الآبدين.

إشـراق شمس الهداية وفداء الحياة في شخص قيّمها:

ولتبدأ رسالة الخلود، رسالة محمد الهادي ﷺ سيرها، وليمض محمد ﷺ إلى أصحابه وأنصاره مهاجرًا وداعيًا إلى الله

مبلغًا رسالات الله، متلقيًا وحي الله، بشرائعه وأحكامه، ناشرًا دين الله، معلمًا ومربيًا مجاهدًا مصلحًا.

ورأى رسول الله ﷺ مكان المتربصين به، فقال لربيب النبوة على رضى الله عنه: «نم على فراشي وتسجَّ ببردي الحضرمي الأخضر، فنم فيه، فإنه لا يخلص إليك شيء تكرهه منهم».

وصدع على رضي الله عنه بأمر رسول الله ﷺ غير عابيء بما قد يكون من عواقب مهما كان شأنها، ولا ناظر إلى ما حوله من أخطار تكتنفه وتحف بجوانبه، فتسجى ببرد رسول الله ﷺ الذي كان ينام فيه، ونام على فراشه يوري عنه ويفديه بنفسه.

وخرج رسول الله ﷺ على المتربصين به في رسوخ اليقين، وثبات الرواسي الشامخات وهم ينظرون بعيون مفتحة ولكنها لا تبصر، وأبدان يقظى ولكنها مخدرة الإحساس، مسكرة الشعور كأنها أشباح نخل خاوية، وأخذ رسول الله ﷺ حفنة من تراب، وجعل ينثره على رءوسهم وهو خارج عليهم، تحقيرًا لشأنهم واستهانة بمكرهم وسوء مكايدتهم، وهو يتلو قول الله تعالى:

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (يس: ١-٩)

فلم يبق منهم رجل إلا وضع على رأسه ترابًا. قال ابن إسحاق وتبعه سائر من ألف في السيرة النبوية من المتقدمين: ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى حيث أراد أن يذهب، قال ابن كثير في (البداية): وهذه القصة قد رواها الواقدي بأسانيده عن عائشة وابن عباس، وعلي وسراقة بن جعشم وغيرهم.

وقد كان خروج رسول الله ﷺ لهجرته سرًا لم يعلم به - كما يقول ابن إسحاق - إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق، وآل أبي بكر، فأما علي بن أبي طالب فأخبره ﷺ بخروجه، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس.

وهذه خصِّيصة لعلي -رضي الله عنه- لمكانه من النبي ﷺ ومنزلته الخاصة في قرابته وبيئته، لأنه ربيبه وأعرف الناس بالنبي ﷺ مدخلًا ومخرجًا وأعلمهم بأحواله وفي ثقة الناس به.

وقد اختلفت الروايات اختلافًا عريضًا لا تتلاقى أطرافه إلا بنظر موفق يرد بعضها إلى بعض في معرفة أين ذهب ﷺ بعد خروجه من بيته ليلًا تاركًا المتربصين في خيبتهم وخسرانهم يرصدون عليًا وهو نائم على فراش النبي ﷺ يتوهمونه محمدًا ﷺ وهم في سكرة الخزي الكسيح يعمهون.

ورواية البخاري وهي أصح ما روي في بدء الهجرة النبوية تقول: إن النبي ﷺ لم يذهب إلى بيت أبى بكر الصديق، ومنه خرجا إلى غار ثور إلا في نحر الظهيرة من اليوم الذي أعقب ليلة خروجه ﷺ، فأين قضى ﷺ الليلة التي خرج فيها من بيته تاركًا عليًا على

فراشه ونصف اليوم الذي بعدها قبل أن يذهب إلى بيت صديقه أبي بكر -رضي الله عنه- في وقت لم تجر به عادته في الذهاب إليه، مع أنه كان دائم الذهاب إليه في كل يوم بكرة وعشية كما هو صريح حديث عائشة عند البخاري؟

وهذا الاختلاف في الروايات المتعددة يسدل على الموضوع ستارًا من الغموض يتطلب في الكشف عنه تتبع الروايات بالنظر والموازنة والمقاربة، ليجعل منها صورة متوافقة لخط السير الذي سلكه رسول الله ﷺ بعد خروجه من بيته ليلًا وهو عازم على الهجرة التي أذن الله تعالى له فيها.

سياق رواية البخاري مع بعض التصرف:

يقول الإمام البخاري بسنده إلى أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- من حديث الهجرة الطويل الذي قالت عائشة في صدره: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين. ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية ثم ذكر الحديث خروج أبى بكر مهاجرًا إلى الحبشة حتى بلغ برك الغماد فقابله بن الدغنة، وذكرت عائشة قصته معه ورد أبى بكر جوار ابن الدغنة ورضائه بجوار الله تعالى، ثم ذكر الحديث قول النبي ﷺ لأصحابه: «إنى أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين» فهاجر إليها من هاجر من أصحابه، وتجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك فإنى أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال «نعم» فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق

السَّمُر أربعة أشهر[١٦].

ثم قال البخارى: بالإسناد نفسه قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة فبينما نحن جلوس في بيت أبى بكر نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنِّعًا في ساعة لم يكن يأتينا فيها، قال أبو بكر: فداءً له أبي وأمي؟! والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت عائشة: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «أخرج مَنْ عندك» فقال أبو بكر: إنما هم أهلكم بأبي أنت يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «فإني قد أُذن لي بالخروج» فقال أبو بكر: فخذ بأمي أنت يا رسول الله إحدى راحلتى هاتين، قال رسول الله ﷺ «بالثمن» قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق، فقالت عائشة: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار بجبل ثور فكانا فيه ثلاث ليالٍ يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرًا يُكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالى الثلاث.

(١٦) السَّمُر شجر الطلح. (المجلة)

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلًا من بني الدِّيل، وهو من بني عبد بن عدي، هاديًا خِرِّيتا[١٧]، وهو على دين كفار قريش، فأمناه، ودفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهم طريق السواحل.

نظر وتحقيق في حديث البخاري:

هذه هي أصح رواية في باب الهجرة النبوية، بيد أن رواية البخاري -رحمه الله تعالى- لم يذكر فيها ما كان من مكر قريش، وهو السبب المباشر في الإذن بالخروج والهجرة، وقد امتن الله تعالى على رسوله ﷺ إذ نجاه من مكرهم وائتمارهم به ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، كما لم تعرض رواية البخاري إلى قصة اجتماع قريش في دار الندوة للتشاور في أمر النبي ﷺ، وما انتهوا إليه من إرادة اغتياله ﷺ اغتيالًا جماعيًا ليتفرق دمه في قبائل قريش، فيعجز قومه عن مقاتلة جميع قبائل قريش ويرضون بالدية، وما كان من اجتماع منتخبيهم بباب النبي ﷺ لينفذوا جريمتهم الفاجرة، وما كان من خروج النبي ﷺ عليهم وتبييته على فراشه عليًا، ثم انصرافه ﷺ إلى حيث يريد حتى ذهب إلى بيت أبي بكر في اليوم التالي في ساعة يشتد فيها قيظ مكة ويقيل فيها الناس، يلتمسون الراحة في الظلال.

كما لم تعرض رواية البخاري لمقدم رسول الله ﷺ إلى بيت

(١٧) الخرِّيت: الدليل الماهر. (المجلة)

أبي بكر من أين كان؟ ولماذا اختار رسول الله ﷺ هذا الوقت (نحر الظهيرة) في هذا اليوم على الخصوص، ولم ينتظر إلى وقته المعتاد الذهاب فيه إلى بيت صديقه، وهو العشي؟ هل أوحي إليه بشيء اقتضى خروجه في ذلك الوقت؟ أو أحس شيئًا يدبر في هذا الوقت فبادر القوم بالذهاب إلى بيت صاحبه؟

هذه كلها أمور تركتها رواية البخاري -رحمه الله- ولم يعرِّج على ذكر شيء منها، والقرآن الكريم يشير في آية الامتنان إلى شيء أو أشياء منها ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٠) فإسناد المكر إلى الذين كفروا إسناد إلى جماعة ائتمرت ودبرت ومكرت لتحدث أخطر حادث في الحياة، وهل يمكن أن يكون هذا المكر والائتمار بهذا الأمر الخطير بين هذا العدد الكثير وتنفيذه ويتحقق دون أن يعرفه العديد منهم، وهل أمر النبي ﷺ بالخروج دون أن يخبر بما دُبر له؟

وقد ذكر الأئمة المعنيون بأسباب نزول آيات القرآن ومنهم الحافظ السيوطي والواحدي روايات كثيرة نقلها عنهم أئمة التفسير، وكلها يذكر اجتماع قريش للتشاور في أمر النبي ﷺ، وهي وإن اختلفت في الأسلوب والسياق بالزيادة والنقص والتقديم والتأخير لكنها كلها تدور حول المعاني التي لم تعرج رواية البخاري على شيء منها في حديث الهجرة الذي يؤذن سياقه بالوثبة من شيء إلى شيء، وقد كانت هذه المعانى في حاجة إلى تمهيد يبين الأسباب الدافعة إلى تلك الحوادث الخطيرة.

إن البخاري -رحمه الله تعالى- ذكر من حديث الهجرة ما توافر فيه شرط الصحة الخاص بجامعه الصحيح، ومهما يكن فإن حديثه نص قاطع بأن النبي ﷺ لم يأت بيت أبي بكر بعد خروجه من بيته في الليلة التي أذن له فيها بالهجرة إلا في منتصف اليوم العاقب لهذه الليلة، وهو اليوم الذي خرج فيه هو وصاحبه إلى غار ثور وأقاما فيه ثلاث ليال، وفي صبح ثالثة الليالي خرجا من الغار منطلقين على اسم الله وبركاته في رحلتهما إلى المدينة المنورة.

فإلى أين ذهب ﷺ عقب خروجه من بيته؟ وأين قضى هذا الوقت الذي استغرق ليلة ونصف نهار قبل أن يذهب إلى بيت صاحبه وصديقه أبي بكر رضى الله عنه؟

وهذا التساؤل مر على ذهن بعض حذّاق قدامى الكاتبين في السيرة النبوية واعترف بأنه لم يقف له على إجابة، قال الزرقاني: قال صاحب النور: ولم أقف على ما صنع ﷺ من حين خروجه إلى أن جاء إلى أبي بكر في نحر الظهيرة.

قد حاول الزرقاني في شرحه لمواهب القسطلانى الإجابة عن ذلك فقال: روى الإمام أحمد بإسناد حسن، قال: تشاورت قريش، الحديث، وفيه: فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات علىّ على فراشه وخرج النبي حتى لحق بالغار أى غار ثور - أى وحده - كما في رواية ابن هشام وغيره، فأفاد أنه توارى فيه حتى أتى أبا بكر منه في نحر الظهيرة، ثم خرج إليه هو وأبو بكر ثانيًا.

ومن هذا الحديث علم الجواب عن قوله في النور: ولم أقف

على ما صنع ﷺ من حين خروجه إلى أن جاء إلى أبي بكر في نحر الظهيرة.

وهذا الجواب يتعارض مع ما ذكره الزرقاني نفسه عن البيضاوي، إذ قال: وفي البيضاوي - أى في تفسيره- : فبيت عليًا على مضجعه وخرج مع أبي بكر إلى الغار، وهذا غريب جدًا.

قال ابن كثير في (البداية) عن عروة بن الزبير من طريق ابن لهيعة: فأمر عليًا فنام على فراشه، وذهب هو وأبو بكر، وهكذا ذكر موسى بن عقبة في مغازيه وأن خروجه هو وأبو بكر إلى الغار كان ليلًا، أى في الليلة التي خرج فيها ﷺ من بيته.

وهذا مشكل جدًا، وأين كان أبو بكر رضي الله عنه؟ هل كان موجودًا معه في بيته؟ وهل كان على علم بما كان من تآمر قريش ومكرها بالنبي ﷺ، وتشاورها في أمره بدار ندوتها؟.

وحديث البخاري ينفي بظاهره أن يكون أبو بكر كان على علم بشيء من ذلك بدليل تعجبه ودهشته حين أخبر بأن النبي ﷺ قادم إليه متقنعًا في نحر الظهيرة من اليوم الذي كان عاقبًا لليلة خروجه ﷺ من بيته بعد أن أمر عليًا بالنوم على فراشه.

فلو كان أبو بكر رضي الله عنه موجودًا معه، وكان على علم بما يجري من الأحداث وخرجا معًا، وذهبا إلى الغار ليلًا في الليلة نفسها لم يبق لحديث نحر الظهيرة مخرج ولا مورد، وهو مروي في أصح الصحيح، فلا يرد إلا بأصح منه أو مثله، ودون ذلك مهامه فيح.

ومما يتعارض مع حديث الإمام أحمد الذي اعتبره الزرقاني جوابًا عن تساؤل صاحب النور ما ذكره الزرقانى نفسه عن الدمياطى، إذ قال: وفي سيرة الدمياطى أنه ﷺ ذهب تلك الليلة إلى بيت أبى بكر، فكان فيه إلى الليلة المقبلة، ثم خرج هو وأبو بكر إلى جبل ثور.

وقد انتقد الزرقاني هذا القول، فقال: وفيه أن الثابت في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام أتى أبا بكر في نحر الظهيرة، وفي حديث أحمد، جعل انتهاء خروجه من بيته بعد أن بيت عليًا على فراشه لحوقَه بالغار -أي وحده- إذ لم يرد لأبي بكر ذكر فيه بأنه خرج معه إلى الغار ليلًا في الليلة نفسها.

ولا ندري لماذا نقد الزرقاني كلام الدمياطي بما ثبت في الصحيح، ولم ينقد به حديث أحمد، ورأي البيضاوي ورواية عروة بن الزبير من طريق ابن لهيعة، وما ذكره موسى بن عقبة في مغازيه؟ وكل ذلك متعارض مع ما ثبت في الصحيح؟.

ومن غريب ما وقع في (فتح الباري) وسبقه إليه صاحب العيون، ما قاله الحافظ: ووقع في رواية هشام بن عروة عند ابن حبان "فركبا – أي رسول الله ﷺ، وأبو بكر حتى أتيا الغار – وهو ثور، فتواريا فيه".

وهذا يحتمل أن يكون موافقًا لرواية الصحيح، وأن خروجهما إلى الغار راكبين كان من بيت أبي بكر بعد أن ذهب إليه النبي ﷺ نحر الظهيرة من اليوم الوالي لليلة خروج النبي ﷺ من بيته بعد أن بيت عليًا على فراشه، وهو احتمال ظاهر، ولكن موضع الغرابة

في هذا الأثر قوله: (فركبا حتى أتيا الغار) وموطن البعد والغرابة، أنهما مطلوبان أشد الطلب، ومكة بطواغيتها قائمة غير قاعدة في البحث عن محمد ﷺ ليجدوه في أي مكان بأي ثمن، فكيف يخرجان راكبين، يعلنان عن نفسيهما،؟ هذا بعيد، لا يهضمه عقل اجتماعي.

ومن أغرب الروايات ما ذكره الحافظ ابن حجر في (الفتح) قال: روى أحمد والحاكم من رواية طلحة النضري قال: قال رسول الله ﷺ «لبثت مع صاحبي - يعني أبا بكر - في الغار بضعة عشر يومًا، ما لنا طعام إلا ثمر البرير».

قال الحاكم: معناه: لبثنا مختفين من المشركين في الغار، وفي الطريق بضعة عشر يومًا، وقد اعترض الحافظ على هذه الرواية بأمرين:

أحدهما: أنه لم يقع في رواية أحمد ذكر الغار، وهي زيادة على الخبر من بعض رواته.

ثانيهما: أنه لا يصح حمله على حالة الهجرة، لما في الصحيح - كما تراه - من أن عامر بن فهيرة كان يروح عليهما في الغار باللبن، ولما وقع لهما في الطريق من لقي الراعي كما في حديث البراء في هذا الباب، ومن النزول في خيمة أم معبد، وغير ذلك، فالذي يظهر أنها قصة أخرى وهذا كلام من الحافظ غير مسلم له.

أما الأول: فلأن عدم ذكر الغار عند أحمد لا ينفي ذكره عند غيره، وقد ذكرها الحاكم، وبين معنى الحديث على أساس

وجوده، فإهدار ذكر الحاكم له دون دليل سوى دعوى أن بعض الرواة زادها غير مقبول.

وأما الثاني: فلأنا لو حملنا الطريق على الطريق من بيت أبي بكر إلى الغار، بمعنى أنهما كانا يسيران ويختفيان - على بعد ذلك لقصر الطريق-، فما كان عامر بن فهيرة يأتيهما باللبن في هذه المسافة، ولا لقيا راعيًا، ولا نزلا بخيمة أم معبد، لأن ذلك كله كان في ليالي الغار الثلاث، وفي الطريق منه إلى المدينة.

ولو حملنا الطريق على طريق السير من الغار إلى المدينة - كما هو ظاهر كلام الحافظ - فاحتمال قلة الزاد والإسنات قائم لا يدفعه رواح عامر ابن فهيرة عليهما باللبن في أيام الغار الثلاثة.

ولقيُّ الراعي والنزول بخيمة أم معبد كان في أثناء الطريق في في أوقات محدودة، فلا ينافيان قلة الزاد في سائر مراحل السفر، والاعتماد على ثمر البرير في أغلب أزمنة السفر.

ولم يعرف أن النبي ﷺ وصاحبه أبا بكر الصديق اختفيا في غار أو غيره هذه المدة الطويلة في غير رحلة الهجرة، ولو عرف لكان من أجدر الناس بمعرفته الحافظ ابن حجر لا سيما في مثل هذه الوقائع، ولو وجده الحافظ عند غيره لذكره.

وقد جزم الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر بعدم صحة قصة ثمر البرير، فقال: وقد روي في حديث مرسل أن النبي ﷺ قال: مكثت مع صاحبي في الغار بضعة عشر يومًا، ما لنا طعام، إلا ثمر البرير -يعني الأراك-: وهذا غير صحيح عند أهل العلم بالحديث.

ومن غرائب الروايات في باب خروج النبي ﷺ للهجرة ما

أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث طويل عن ابن عباس، يعدد فيه مناقب علي -رضي الله عنه- وقد وقع فيه رهط من شانئيه وغامطي فضله - وفيه: وشرى عليّ نفسه، لبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه، والمشركون يرمون رسول الله ﷺ، فجاء أبو بكر وعلي نائم، وأبو بكر يحسب أنه نبي الله ﷺ فقال: يا نبي الله -، فقال له علي: إن نبي الله ﷺ انطلق نحو بئر ميمون فأدركه، فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار.

فأين تقع بئر (ميمون) هذه في مكة؟ لقد أعياني البحث عن معرفة مكانها بين آبار مكة، وقد دَرَسَتْ معالمُ الآثار، وطمست بيناتها، لأن الجهل بالتوحيد دفع الأغمار من العامة إلى أن خلعوا على هذه الآثار التي لها ذكر في حياة النبي ﷺ أثوابًا من التقديس الذي يخدش وجه إخلاص العبودية لله الواحد الأحد، ولو علموا لعلموا واستقاموا وحفظت الآثار الخاصة دلائل تاريخية، وآيات بينات على تفسير بعض الأحداث التي تتصل بحياة الدعوة وتبليغ الرسالة.

آثار وأخبار عن بئر ميمون:

وكل ما وصل إلى علمي من أخبار بئر (ميمون) هذه التي تقول الرواية أن النبي ﷺ قد انطلق في خروجه من بيته ليلة التربص به لاغتياله نحوها ما ذكره الأزرقي في كتابه (أخبار مكة) وما جاء فيها من الآثار إذ يقول: وكان لعبد المطلب إبل كثيرة، فإذا كان الموسم جمعها ثم يسقي لبنها بالعسل في حوض من أدم عند زمزم، ويشتري الزبيب فينبذه بماء زمزم ويسقيه الحاج، ليكسر

غلظ ماء زمزم، وكانت إذ ذاك غليظة جدًا. وكان الناس إذ ذاك لهم في بيوتهم أسقية يسقون فيها الماء من هذه البيار، ثم ينبذون فيها القبضات من الزبيب والتمر لأن يكسر عنهم غلظ ماء آبار مكة - وكان الماء العذب بمكة عزيزًا، لا يوجد إلا لإنسان يستعذب له من (بئر ميمون) وخارج من مكة.

فبئر (ميمون) كان لها امتياز على سائر آبار مكة بعذوبة مائها، وكانت خصيصة بمن يستعذب له الماء منها، وهذا في عرف الناس لا يكون إلا لطبقة ممتازة بالذوق وصفاء الطبيعة، ولعل النبي ﷺ كان يستعذب له الماء منها، وكانت قريبة من منازل بني هاشم، يردها منهم أشرافهم.

ومهما يكن من شيء فإن هذا الأثر من قبيل الآثار التي جمعت بين النبي ﷺ وصاحبه في الذهاب إلى الغار معًا في ليلة خروجه ﷺ، وهو معارض لحديث البخاري عن عائشة -رضي الله عنها-.

وقد أبعد النجعة أبو جعفر الطبري في تاريخه، فذكر روايات زادت من شقة الاختلاف بين روايات الهجرة النبوية باختلافها أشد الاختلاف وأبعده مع رواية الصحيح، قال أبو جعفر: زاد بعضهم في هذه القصة في هذا الموضع، وقال- أي رسول الله ﷺ - لعلي -رضي الله عنه-: «إن أتاك ابن أبي قحافة فأخبره أني توجهت إلى ثور، فمره فيلحق بي، وأرسل إلي بطعام، واستأجر لي دليلًا، يدلني على طريق المدينة، واشتر لي راحلة».

وهذا خبر كما يرى لا يعول عليه لأنه يتعارض مع حديث عائشة عند البخاري، وهو الأصل في هذا الباب.

ثم مضى أبو جعفر متممًا لروايته السابقة فقال: وقد زعم بعضهم أن أبا بكر أتى عليًا فسأله عن النبي ﷺ، فأخبره أنه لحق بالغار من ثور، وقال له: إن كان لك فيه حاجة فالحقه، فخرج أبو بكر مسرعًا، فلحق نبي الله ﷺ في الطريق، فسمع رسول الله ﷺ جرس أبي بكر في ظلمة الليل فحسبه من المشركين، فأسرع رسول الله ﷺ المشي فانقطع قبال نعله، ففلق إبهامه حجر، فكثر دمها، وأسرع السعي، فخاف أبو بكر أن يشق على رسول الله ﷺ فرفع صوته، وتكلم فعرفه رسول الله ﷺ، فقام حتى أتاه فانطلقا ورجل رسول الله ﷺ تستن دمًا حتى انتهى إلى الغار مع الصبح فدخلاه، قال ابن كثير في البداية تعليقًا على هذا الخبر: وهذا غريب جدًا، وخلاف المشهور من أنهما خرجا معًا. وهذا النقد من ابن كثير غير مستوعب، وهو إلى السطحية أقرب منه إلى التعمق.

وقد ذكر السيوطي في (الدر) أن ابن مردويه، وأبا نعيم في الدلائل أخرجاه عن ابن عباس وفيه اختلاف في سياقه وبعض عباراته.

قال ابن عباس: لما خرج رسول الله ﷺ من الليل لحق بغار ثور، وتبعه أبو بكر -رضي الله عنه-، فلما سمع رسول الله ﷺ حِسَّه خلفه خاف أن يكون الطلب، فلما رأى ذلك أبو بكر -رضي الله عنه- تنحنح، فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ عرفه فقام له حتى تبعه فأتيا الغار، فأصبحت قريش في طلبه، فبعثوا إلى رجل من قافة بني مدلج فتبع الأثر حتى انتهى إلى الغار، وعلى بابه شجرة

فبال في أصلها القائف، ثم قال: ما جاز صاحبكم الذي تطلبون هذا المكان، فعند ذلك حزن أبو بكر -رضي الله عنه-، فقال له رسول الله ﷺ:

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠)

فمكث هو وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام، يختلف إليهم بالطعام عامر بن فهيرة، وعليّ يجهزهم، فاشتروا ثلاثة أباعر من إبل البحرين، واستأجر لهم دليلًا، فلما كان بعض الليل من الليلة الثالثة أتاهم علي -رضي الله عنه- بالإبل والدليل، فركب رسول الله ﷺ راحلته، وركب أبو بكر الأخرى فتوجهوا نحو المدينة، وقد بعثت قريش في طلبه.

وفي تاريخ الطبري قال أبو جعفر: وأصبح الرهط الذين كانوا يرصدون رسول الله ﷺ فدخلوا الدار، وقام علي -رضي الله عنه- عن فراشه، فلما دنوا منه عرفوه، فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، أَوَرقيبًا كنت عليه؟ أمرتموه بالخروج، فخرج، فانتهروه وضربوه، وأخرجوه إلى المسجد، فحبسوه ساعة ثم تركوه.

عجيب أمر هذه الروايات؟!

والذي ذكرناه من الروايات في بحث بدء هجرة النبي ﷺ، وكيف كانت هذه البداية قليل من كثير مختلف مضطرب، لا يهدي إلى يقين، ولكن بعضه محتمل الوقوع، لا يرده نص قاطع، ولا ينكره عقل متفقه في سيرة النبي ﷺ.

والبحث يقف مع رواية الصحيح، ويكملها بدءًا وانتهاء بما يشبهها في معناها، ولا نرد الروايات المشهورة التي لا تتعارض

تعارضًا يتعاصى على التأويل مما ذكره المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٠) مما ذكره رواة أحداث السيرة النبوية من الحفاظ المتخصصين كابن إسحاق وموسى بن عقبة، والبيهقي في الدلائل، وأبي نعيم، والدمياطي والقسطلاني في مواهبه وشارحها الزرقاني، والحافظ في الفتح، وابن كثير في تفسيره وتاريخه البداية والنهاية، وذكره أئمة المحدثين من أصحاب السنن والمسانيد كالإمام أحمد والترمذي وابن مردويه، وابن حبان، وابن أبي حاتم وأضرابهم.

والتأويل محتمل في كثير من الروايات بما يردها إلى رواية الصحيح، وقد نبهنا على أن رواية البخاري -رحمه الله- لم تتعرض لمقدمات الهجرة وأسبابها المباشرة التي أشارت إليها الآية إشارة واضحة، وذكرت ذلك روايات الأئمة.

ومع ذلك ما يزال التوقف في الجزم بما كان من النبي ﷺ بعد خروجه من بيته في ليلة التآمر عليه والمكر به، والتشاور في أمره إلى أن ذهب إلى بيت أبي بكر في نحر ظهيرة اليوم التالي لهذه الليلة هو الأسلم، حتى يظهر الله تعالى من غَيبِهِ أمرًا يكشف الغطاء.

بيد أن هناك أمرًا خطيرًا لم تعرض له الروايات، ومجرى الحوادث يقتضيه مذكورًا فيها، بل في صدرها، ذلك هو موقف بني هاشم من هذا الحدث الخطير بكل مقدماته وأسبابه ووقائعه،

وهو حادث لم يمر بهم مع قريش مثله في خطورته وضخامة آثاره، وبشاعة مناشئه ومنعرجات مكايده ومكره.

أين بنو هاشم في حادث هجرة النبي ﷺ ومكر قريش به، وائتمارهم على اغتياله في بيته؟ وما موقفهم منه؟ أفإن مات أبو طالب ماتت حمية قومه من بني هاشم؟ وذهبت معه إلى الفناء نخوتهم وشجاعتهم؟ وأدبرت عصبيتهم وتعوضوا عن مكارمهم وتعزُّزهم الذلَ والهوان والضيم، تصبها عليهم قريش متحدية بتجمعها وتآمرها على محمد ﷺ، وهو الذي كانوا بالأمس القريب يضعون أرواحهم على أكفهم لحمايته والذود عنه بسيوفهم وأنفتهم أن يضاموا فيه؟

هذا ما لا يمكن أن يصدق، ولا يمكن أن يقبله عقل سليم، عرف أخلاق العرب عامة وحميتهم وعرف أخلاق بني هاشم في قوة شكيمتهم وعرامة نخوتهم، وعلو مكانتهم في بيوتات قريش بل في قبائل العرب عامة؟.

وإذن ما حكمة عدم أي ذكر لهؤلاء الأنف الشامخين من بني هاشم في أخطر حادث مر بمكة وقريشها، بل في أخطر حادث مر بالحياة كلها؟ وهو حادث يمس في الصميم عزة الهاشميين، وهو حادث موجه لإذلالهم لأنهم أصحابه وأهله منذ كانت أسبابه ودوافعه وعوامله يحاك نسجها من وراء أسوار بيوت بني مخزوم والعبشميين عداوة حاقدة للهاشميين؛ لأن الله تعالى سما بهم فاصطفى منهم محمدًا ﷺ خاتمًا للنبيين والمرسلين.

وقد ذاق الهاشميون مرارة هذه العداوة الحاقدة مع الأبعدين

من بطون قريش منذ أنزل الله تعالى على نبيه محمد ﷺ قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤) حفاوة بهم وتوجيهًا لهم إلى التعزز بحماية ما خصوا به من الاصطفاء الأعز فيهم، فجمعهم النبي ﷺ وخطبهم، ودعاهم إلى الله، وقال لهم في دعوته: «ما أعلم أحدًا جاء قومه بأفضل مما جئتكم، جئتكم بخير الدنيا والآخرة». ومن ثم وقف الهاشميون مواقفهم المتعززة في شجاعة وبطولة إلى جانب محمد ﷺ حمية لقوميتهم بسيوفهم، معرّضين أرواحهم وأموالهم وعلاقاتهم إلى الهزاهز المدمرة، ولو لم يكن لهم إلا موقفهم يوم دعاهم أبو طالب وقد بلغه أن قريشًا تريد قتل محمد ﷺ فقال لأبناء هاشم: ليأخذ كل رجل منكم حديدة صارمة، ثم ليتبعني، فصدعوا بأمره دون أن يسألوه فيم هذا؟ وذهب بهم يؤمهم حتى دخل المسجد والملأ من قريش قعود يهجرون حول الكعبة، فقال للهاشميين: ليكشف كل واحد منكم عن حديدته، فكشفوا عن سيوف عطشى للدماء، ثم قال للملأ: أَوَقد رأيتم؟ والله لو قد مسستم محمدًا - ﷺ - ما أبقينا على أحد منكم أو نهلك عن آخر رجل منا، فوجم لها ملأ الطغاة ولم ينبس منهم أحد بكلمة، ثم تركهم وقد اسودت وجوههم خزيًا وذلًا.

ولو لم يكن للهاشميين من شرف مواقفهم مع قريش حماية عصبية لمحمد ﷺ إلا موقفهم الجماعي في دخولهم حصار الشعب مؤمنهم وكافرهم؛ لكفى دليلًا على أنهم كانوا في حميتهم القومية وعصبيتهم الهاشمية يجعلون نحورهم هدفا

يتقون به ذل المعرة والضيم في شخص محمد ﷺ.

ولا نخص العباس بن عبد المطلب - وهو يومئذ على مثل ما كانت عليه قريش من الوثنية والشرك - ومواقفه من النبي ﷺ والحدب عليه وكثرة مجالسته له ﷺ، حتى كان من يريد النبي ﷺ، وهو لا يعرفه يعرفه بمجالسة العباس له.

وحسْبُ العباسَ في ذلك موقفُه يوم بيعة العقبة الكبرى (فتح الفتوح) وشهوده لها مع النبي ﷺ توثقًا له ﷺ، وما قال في خطبته العظيمة تنويهًا بعزة النبي ﷺ بسيف أهله وقومه، ومنعته فيهم.

ولا نذكر فتى الفتيان أسد الله وأسد رسوله ﷺ سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب الذي جدع أنف الغُرور، من اللعين الفاسق غميز الرجولة أبي جهل، وأذل قومه بني مخزوم حمية لابن أخيه محمد ﷺ يوم أن بلغة أن هذا اللعين الفاسق أبا جهل قد سبه وآذاه، فذهب إليه على رءوس ملأ الطغيان وضربه بقوسه فشجه شجة منكرة، فلم تستطع بنو مخزوم أن تقف أمام حمية حمزة، ورضيت بذل المهانة وعار الجبن أمام وقفة حمزة في حميته التي انتهت به إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ إيمانًا سما به فكان سيد الشهداء.

وحمزة -رضي الله عنه- هو الذي رَعْبَل حشود الفجور في بدر، وأورد أشراف طغاتهم أوخم حياض الموت، وأذاق قريشًا طعم الهوان والمهانة والذل المستخذي بعد العنجهية والاستكبار الفجور.

أفيكون حمزة عم رسول الله ﷺ في قوة إيمانه، وشجاعته وفتوة بطولته موجودًا - على قيد خطوات من تجمع ملأ الطغيان من قريش، ومن ورائهم سفهاؤهم وغوغاؤهم للتآمر على قتل محمد ﷺ غيلة في جوف بيته على فراشه - ولا يسمع لزئيره همهمة ولا يحس لزمجرته زلزلة؟ بل لا يسمع له نأمة ولا تحس له همسة؟

أويكون العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ الذي ندب نفسه حمية لابن أخيه، ليعرف موقف الأنصار يوم أن جاءوا ليبايعوا رسول الله ﷺ على الإيمان به وبرسالته على أن يحموه بأرواحهم وأموالهم، ويمنعوه مما يمنعون به أعز ما يملكون من ذمار - موجودًا على مسمع من تآمر قريش ومكرهم بمحمد ﷺ ليقتلوه، ولا يُعرف له موقف في هذا الحادث المدمر لشوكة بني هاشم، المذل لعزتهم؟

ولكنا نتساءل أين أولئك الأعزة الأماجد؟ وأين فتيانهم الأبطال المغاوير؟ بل أين شيوخهم وذوو رأيهم وقد صك صوت أخبث مؤامرة أصماخهم، فهل كانوا على علم فذلوا وسكتوا واستكانوا مستسلمين لفجور قريش؟ أو كانوا سادرين في غطيط(١٨) لم يوقظهم منه قعقعة صوارم السيوف التي أعدتها قريش لفتيانها الذين اختارتهم على عين فجورها ليغتالوا محمدًا ﷺ بضربة واحدة وهو على فراشه في جوف بيته ليقتلوه فيتفرق دمه في القبائل، وتعجز بنو هاشم عن الأخذ بثأره بمقاتلة جميع قبائل

(١٨) الغطيط: صوت النائم المستغرق في نومه. (المجلة)

المتآمرين، ويرضون بعقله وديته فتعقله لهم قريش وتعطيهم ديته؟

إذن كانت قريش تحسب لبني هاشم حسابًا مرعبًا مخيفًا لأنهم لا يزالون أمجادًا صِيدًا لا يعدلهم في ميزان الحرب والقوة إلا قبائل قريش مجتمعة.

ولكن أين هم أولئك الأسود الحردة والأبطال الذين لا ترام نخوتهم، والحوادث تجري متتابعة مسرعة في زمجرة الفجور وهي تصيح بهم أين أنتم يا أسود الشَرَى؟[١٩]

أليست قريش يقودها اللعين، لعين مخزوم غميز الرجولة الفاسق أبو جهل قد اجتمعت وتشاورت في أمر محمد ﷺ واتفقت كلمتها على اغتياله وقتله؟ أوَليس قد انتهى بها تشاورها في لحظات إلى اتخاذها قرارًا بالتخلص من محمد ﷺ على أبشع صورة في صور الغدر والفجور، ومضت قريش قدمًا في تنفيذ جريمتها الفاجرة واختارت فتيانها واختارت لهم صوارم أسلحتهم، واتخاذ مواقعهم على باب بيت محمد ﷺ، يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه لقتله، ونزل جبريل عليه السلام يأمر النبي ﷺ بعدم البيات على فراشه وخرج ﷺ ذاهبًا حيث شاء وبيَّت عليًا على فراشه.

كل ذلك قد كان، ولا حس لبني هاشم ولا خبر، ولا ورد لهم في الأحداث ولا صدر، وهم قابعون في بيوتهم متقلبون في مصالحهم

(١٩) الشرى طريق تكثر فيه الأسود، انظر اللسان. (المجلة)

وأعمالهم، يروحون ويغدون من وراء الأحداث وفي ظلام النسيان وذل الاستكانة.

أفيمكن لذلك أن يكون؟ أوَيصح في شرعة التاريخ الصادق أن يكون بنو هاشم قد تواروا في هذه الأحداث وراء الجبن المذل فلم يرفعوا رءوسهم للأحداث وهي تمر بهم فتلكزهم لكزًا يحوّل قلوبهم من أماكنها بين أضلعهم؟ أوَيرضى التاريخ المنصف أن يدون في صحائفه هذا الموقف بصورته المذلة الذليلة؟ وكأن محمدًا ﷺ ليس منهم في الذروة ولا في السفح؟

من يصدق هذا؟ ولكن الروايات الكثيرة التي ليس لها استثناء أجمعت على هذا الموقف العجيب الغريب، ولم نعلم أحدًا من الباحثين القدامى والمحدثين تعرض له بإنكار، وهو أنكر المنكرات، حقًا إن التاريخ ظالم ومظلوم.

إذن لا بد أن يكون في الأمر خبيء يكمن وراء هذه الروايات المتكاثرة التي أهملت موقف بني هاشم بل تعمدت أن تهملهم وتتناساهم كأن لم يكونوا من أهل الذكر في البلد الحرام، حتى أبو لهب عدو محمد ﷺ وعدو رسالته المستعبد لعبشمية زوجه أم قبيح بنت حرب أخت أبي سفيان، لم يذكر في صفوف المتآمرين إلا في بعض الروايات، كأن في الأمر مؤامرة أخرى قررت تحقير بني هاشم فلا يرد لهم ذكر قط في آخر فصل تختم به قصة الصراع المرير بين الوثنية المادية في عتوها وفجورها، يحمل رايتها أخابث طواغيت الشرك البليد، وبين دعوة الحق لإعلاء كلمة الله - كلمة الحق والتوحيد، لتخرج الناس من الظلمات إلى

النور، يحمل لواءها رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله الهاشمي، وبنو هاشم على كفر بعضهم كانوا حماة دعوة الحق، تعصبًا قوميًا للذود عن رسولها وحامل لوائها محمد ﷺ باعتباره غصنًا من الدوحة الهاشمية، ولهم في ذلك مواقف رادعة لجبروت المخزوميين والعبشميين ومن لف معهم في ذلك الفجور الوثني البليد من بطون قريش وأفخاذها، وهي مواقف مشهورة مذكورة لم يستطع التاريخ أن يتناساها أو يهملها كما تناسى وأهمل موقفهم في حوادث بدء الهجرة وأسبابها ودوافعها، وهي أخطر من كل ما سبق في مرحلة الكفاح المرير.

والخبيء الذي يكمن وراء الروايات في هذه القصة هو الذي يمكن أن يجيب عن التساؤل الذي تسوقه البداهة: أين ذهب رسول الله ﷺ بعد خروجه ليلًا من بيته ليلة المكر به؟ وهو الذي يحل المعضلة، فإن يكن هو الذي قد كان، وهذا ظن يوشك أن يكون يقينًا، ومن هنا كان من الواجب البحث عن سندٍ له من النقل، لأننا لم نعثر له على سند في رواية من الروايات التي استطعنا الوصول إليها والاطلاع عليها.

وإنما سنده عندنا في أمور توحي به إيحاء وتشير إليه إشارة بينة وهي:

أولًا: أن رواية البخاري رحمه الله - وهي التي استقامت لها معالم الصحة كاملة - صريحة في أن النبي ﷺ إنما ذهب إلى بيت أبي بكر -رضي الله عنه- في اليوم التالي لليلة خروجه ﷺ من بيته في منتصف النهار منه، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن أبا

بكر -رضي الله عنه- لم يكن معه ليلة خروجه، ولا كان عنده علم بالأحداث في مكر قريش وتآمرها وتشاورها في أمر النبي ﷺ.

ثانيًا: أن موقف أبي بكر -رضي الله عنه- في استقبال النبي ﷺ حين قدم إلى بيته في نحر الظهيرة من اليوم التالي لليلة خروجه من بيته بعد أن بيَّت عليًا على فراشه يوحي بأن أبا بكر -رضي الله عنه- لم يكن قط على علم بما حدث من تجمعات قريش ومكرها وائتمارها بالنبي ﷺ، لأنه حين أخبر بمقدم النبي ﷺ إليه في نحر الظهيرة أبدى تعجبًا واستغرابًا وإشفاقًا على رسول الله ﷺ، أن يكون قد حدث أمر خطير حمله على السعي إليه في هذه الساعة القائظة فقال: بأبي وأمي هو، ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، ثم أخبره ﷺ بأنه أُذن له في الهجرة، ولم يلبثا في بيت أبي بكر إلا ريثما جهزا أحث الجهاز وخرجا من خوخة في ظهر بيت أبي بكر متوجهين إلى غار ثور، بعد أن واعدا دليلهما صبح ثالثة عند الغار.

وكان أبو بكر معدًا للهجرة منذ أن رآه النبي ﷺ يتجهز قبل المدينة فقال له: «على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر استطعامًا لهذا الخبر السار: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال «نعم» فحبس أبو بكر -رضي الله عنه- نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه.

ثالثًا: إن الروايات المخالفة لرواية البخاري مضطربة متضاربة.

بعضها يقول إن أبا بكر -رضي الله عنه- خرج مع رسول الله ﷺ ليلًا، وتوجها معًا إلى غار ثور، وهذا يفيد أن أبا بكر -رضي الله عنه- كان مع رسول الله ﷺ في بيته ليلة المؤامرة والمكر وهو مخالف لما تفيده رواية الصحيح.

وبعضها يقول: إن رسول الله ﷺ خرج من بيته وذهب وحده إلى الغار في جبل ثور، فبات فيه، ثم أتى منه إلى بيت أبي بكر -رضي الله عنه- في نحر الظهيرة من اليوم التالي لليلة الخروج من بيته ﷺ، وفيه مخالفة لرواية الصحيح التي تقول فيها عائشة -رضي الله عنها-: ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية.

فكيف لم يذهب أبو بكر -رضي الله عنه- صبح هذه الليلة ليسأل عن رسول الله ﷺ ويعرف سبب تخلفه عن عادته في مجيئه إلى بيت أبي بكر -رضي الله عنه- طرفي النهار، وهو ﷺ تخلف عشية ليلة المؤامرة وصبحها، وحينما جاءه في منتصف النهار عجب أبو بكر ودهش؟

وبعضها يقول: إن النبي ﷺ أمر عليًا -رضي الله عنه- أن يشتري له ثلاثة أبعرة، وأن يستأجر له دليلًا يدله إلى المدينة، وأن يأتيه بطعام، وهذا صريح في مخالفته لنص حديث الصحيح في أن أبا بكر -رضي الله عنه- هو الذي اشترى الراحلتين وأعطى رسول الله ﷺ خيرهما، فأبى أن يأخذها إلا بالثمن الذي اشتريت به ليخلص هجرته من أية شائبة، ولو كانت عن مواساة الإخاء، وأن آل أبي بكر -رضي الله عنه- هم الذين جهزوهما أحث الجهاز، وأعدوا لهما سفرة في جراب ربط بنطاق أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنهما- بعد أن شقته نصفين فلقبت ذات النطاقين، وأن عامر بن فهيرة مولى أبي بكر -رضي الله عنه- كان يرعى عليهما غنمًا لأبي بكر في غلس من الليل، فيشربان من ألبانها

ويذبحان ما يحتاجان إليه من شياهها.

وبعضها يقول: إن النبي ﷺ قال لعلي: «إذا أتى ابن أبي قحافة فقل له يلحق بي في غار ثور»، وهذا يفيد أن النبي ﷺ توجه بعد خروجه من بيته إلى غار ثور، وأن أبا بكر -رضي الله عنه- لحق به فدخلا الغار صباحًا بعد أن جرح إصبع رسول الله ﷺ، وفيه مخالفة لرواية الصحيح.

وبعضها يقول: إن أبا بكر -رضي الله عنه- جاء فسأل عليًا عن رسول الله ﷺ فقال له علي -رضي الله عنه-: إنه توجه نحو بئر (ميمون) فالحق به إن كانت لك حاجة.

وهكذا....، وهكذا تختلف الروايات كلها اختلافًا جوهريًا مع رواية الصحيح، وتختلف مع بعضها، ولهذا قلنا: إن التوقف في قبول هذه الروايات - واعتبار بعضها إجابة عن التساؤل الذي تسوقه البداهة: أين ذهب رسول الله ﷺ بعد خروجه من بيته؟ وأين قضى ﷺ ليلته ونصف اليوم الذي وليها قبل أن يذهب إلى صديقه أبي بكر -رضي الله عنه- نحر ظهيرة ذلك اليوم - أسلم[٢٠] حتى تظهر أدلة نقلية تجيب جوابًا شافيًا لا يتعارض مع رواية الصحيح.

رابعًا: ما بينا من موقف الروايات كلها من عدم ذكر بني هاشم في القصة كلها يجعلنا نقف من تلك الروايات موقف العجب المدهش، ويفتح أمامنا أبوابًا للحدس واستوحاء العقل، وقرائن الوقائع وما يحتفّ بها من أمور لعلنا ننفذ منها إلى مخرج يلائم أحداث القصة بدءًا ونهاية، ويحل مشكلة التساؤل الذي لم تجب

(٢٠) كلمة: (أسلم) هي جواب (إن) في قوله: (إن التوقف ...). (المجلة)

عنه الروايات بما لا يختلف مع رواية الصحيح وبما لا يقع فيه الاضطراب والتعارض.

لقد ألقى موقف الروايات المتكاثرة المتخالفة من بني هاشم وعدم ذكر شيء أي شيء عنهم في هذا الحادث الخطير - وهم عصبة محمد ﷺ الذين أشادت الروايات بمفاخرهم وبطولة مواقفهم في الذود عنه وحمايته بأرواحهم، وتضحياتهم وتصديهم لحماقة قريش وسفهائها، ورد كل اعتداء يحسون أنه دُبر للنيل منه -ظلالا من الحيرة والدهش[٢١]، وأثار في النفس ظنونًا، وفي العقل إيحاءات، وفي التفكير سبحات للاستنباط، بناء على ما أوضحناه من أسباب تجعل من المحال عرفًا أن تمر هذه الأحداث التي تفجرت عنها قصة الهجرة النبوية في غيبة متلاهية، وفي صمت لا يعدله إلا صمت الموتى في القبور ممن كانوا بالأمس القريب يهزون أركان مكة بزئيرهم، إذا سمعوا أو أحسوا أن أحدًا قد نال أو يريد أن ينال من محمد ﷺ شيئًا من الأذى بالكلمة أو الفعل، فكيف بهم وقعقعة السلاح لقتل محمد ﷺ غيلة في جوف بيته على فراشة تقرع أفئدتهم وتدق أبواب قلوبهم دقا عنيفًا مزمجرًا مرعبًا، وبيت محمد ﷺ بين بيوتهم كالقلعة التي تحيط بها أسوار من الكتائب المعبأة للهجوم؟

الأحداث كلها والوقائع جميعها تأبى كل الإباء أن يكون بنو

---

(٢١) كلمة (ظلالا) هي المفعول به للفعل (ألقى) الوارد في السطر الأول من الفقرة. (المجلة)

هاشم نبعة محمد ﷺ التي انفرجت عن غصنه، وبيضته التي تفقأت عن طائره، بعيدين كل البعد الذي يفقدهم الشعور بما يجري حولهم من قاصمات الظهور في أحداث هي أخطر من كل ما مر بهم في شنف قريش وعدائها لهم بسبب مواقفهم البطولية في الذود عن محمد ﷺ وحمايته.

فالبداية تقضي بأن بني هاشم كانوا في حومة الأحداث يقودونها بتدبيرهم ومحكم سياستهم، وأنهم كانوا على أكمل العلم وأتم المعرفة بمكر قريش وتآمرها، فرأوا أن يقاتلوها بسلاحها، سلاح المكر والمخادعة، فأحكموا أمرهم لينتهي بقريش إلى الخزي والخذلان والفشل وعار الأحدوثة.

وينتهي بمحمد ﷺ إلى تمكينه من الهجرة حيث أصحابه من المهاجرين والأنصار الذين بايعوه على نصرته وإعزازه ومنعه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم وذراريهم وحرماتهم بمشهد من عمّه العباس بن عبد المطلب، وكان العباس ما يزال على دين قومه من الشرك والوثنية، توثّقًا لابن أخيه من هؤلاء المبايعين الصناديد بقية السيف من أبناء قيلة(٢٢)، أوسها وخزرجها، وقد تقدم بين يديهم بالهجرة إليهم الصفوة السابقون الأولون من المؤمنين.

هذا الاتجاه في فهم الأحداث يوحي به ترابط الوقائع في الماضي والحاضر والمستقبل، ذلك الترابط الذي يوجب أن يكون وجود بني هاشم في غمرة الأحداث ومطالعها قادة ذادة

(٢٢) قيلة: اسم امرأة. وبنو قيلة هم الأوس والخزرج. (المجلة)

حكمـاء يسوسـون الأمور سياسـة حقيقية واقعة بـكل ما يجعلها حلقة في سلسلة التاريخ لا بد من وجودها.

وإذا كان ذلـك كذلك فالمعقـول القريب إلى التصور أن يكون النبـي ﷺ خرج من بيتـه بعد أن بيّت عليًا -رضـي الله عنه- على فراشــه إلى بيت من بيوت بني هاشم على علم منهم بمكانه ﷺ، وفيــه قضى ليلته وصدر يومها حتى إذا أظهر وهدأت الحياة خامدة تحت وطأة سعير مكة، ولهيب حرها، وقال الناس في فيء الظلال مـن البيوت وغيرها خرج ميممًـا بيت صديقه أبي بكر -رضي الله عنــه- فأتاه في نحر الظهيـرة، وهو وقت لم يكن من الأوقات التي تعود رسول الله ﷺ أن يأتي فيها آل أبي بكر -رضي الله عنه، فتلقاه الصديق بلهفة المتوجس المشـفق متسـائلا ليكشف له عن سبب مجيئه المفاجئ في هذا الوقت الذي تتثاءب فيه الحياة مسـترخية خامـدة لا يحـس لها حراك قائـلًا: فداء له أبي وأمـي، والله ما جاء بـه فـي هذه السـاعة إلا أمر - أي شـيء خطيـر - ورأى النبي ﷺ لوائح اللهفة والتوجس والإشـفاق تلوح على وجه الصديق -رضي الله عنه-، فبادره بأسعد بشرى في حياته فقال له: «إني قد أُذن لي بالخـروج» فقال أبـو بكر -رضي الله عنه-: الصّحبـة بأبي أنت يا رسول الله، فقال «نعم».

قالت عائشـة: فجهزناهما أحث الجهاز، ورأيت أبا بكر يبكي وما كنت أحسب أن أحدًا يبكي من الفرح.

الإعداد لمسيرة الهجرة في رعاية الله وكنفه

وكان أبو بكر -رضي الله عنه- قد حبس نفسه على رسول الله ﷺ انتظاراً لصحبته في هجرته بعد أن قال له رسول الله ﷺ -وهو يتجهز قِبَل المدينة بعد أن ردّ جوار ابن الدغنّة ورضي بجوار الله تعالى- : «على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر -رضي الله عنه- : وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال «نعم».

وأخذ أبو بكر -رضي الله عنه- يُعد العدة لصحبة رسول الله ﷺ في هجرته عملاً بما فهمه من رجاوة رسول الله ﷺ في الإذن له بالخروج، واشترى راحلتين نجيبتين ظل يعنى بهما ويعلفهما ورق السَّمُر أربعة أشهر.

فلما أُذن لرسول الله ﷺ بالهجرة في ليلة المكر القرشي، ووعد الصديق بالصحبة قال أبو بكر -رضي الله عنه- : فخذ بأبي أنت يا رسول الله - إحدى راحلتي هاتين، فقال رسول الله ﷺ : «بالثمن الذي ابتعتها به» فقال أبو بكر -رضي الله عنه- ، أخذتها بكذا وكذا. فقال رسول الله ﷺ : «أخذتها بذلك»؟ قال أبو بكر -رضي الله عنه- : هي لك، وقد ورد من طريق الواقدى أن ثمن الراحلتين كان ثمان مئة درهم وكانتا من نجائب بني قشير، والجمهور على أن التي أخذها رسول الله ﷺ هي القصواء.

وفي صنيع رسول الله ﷺ وموقفه من صاحبه وصديقه أبي بكر -رضي الله عنه- وامتناعه من أخذ الراحلة إلا بالثمن الذي اشتراها

بــه تنويه بعظم شــأن الهجرة، وأنها عمل يمتاز على ســائر أعمال الإيمــان من العبادات والمعاملات، فيجــب أن يتمحض لصاحبه، فلا يدخله شــيء من فواضل المواســاة الأخوية والمودّات الحبيّة، ومــن المعروف المتعالم أن النبي ﷺ قــد قبل من الصديق -رضي الله عنــه- كثيراً من المواســاة الأخوية، وأنفق عليــه الصديق مالاً كثيــراً، وأثنى عليه النبي ﷺ بذلك فقال: «إن من أمنِّ الناس عليّ فــي ماله أبا بكر» قــال العلماء: وكانت ثروة أبــي بكر -رضي الله عنــه- أربعيــن ألف درهم أنفقهــا كلها على رســول الله ﷺ وعلى الدعوة إلى الله تعالى.

وكان آخرها خمســة أو ســتة آلاف حملها معه فــي هجرته إلى المدينة، لم يترك لآله وولده شيئاً.

حيلة أسماء لتسكين جدها:

روى محمد بن ســعد في الطبقات بســنده إلى أســماء بنت أبي بكــر -رضــي الله عنهما- قالــت: لما خرج رســول الله ﷺ وخرج معه أبو بكر احتمل ماله كله معه، خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهــم، فانطلق بهــا معه، فدخل علينا جدّي أبــو قحافة وقد ذهب بصره فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفســه فقلت: كلا يــا أبــت، إنه ترك لنا خيــراً كثيراً، قالت أســماء: فأخذت أحجاراً فوضعتهــا في كــوة البيت حيــث كان أبي يضع مالــه، ثم وضعت عليهــا ثوبــاً، ثم أخــذت بيده فقلت: ضــع يا أبت يــدك على هذا المــال، فوضع يــده عليه وقال: لا بأس إن كان تــرك لكم هذا فقد

أحسن، وفي هذا بلاغ لكم، قالت أسماء: فلا والله ما ترك لنا شيئاً ولكني أردت أن أسكّن الشيخ بذلك.

تميز الهجرة في الإخلاص لله وعدم قبول تفضل فيها من أحد:

فامتناعه ﷺ مع ما بذله أبو بكر -رضي الله عنه- من مكارم المودة ومواساة الإخاء - من أخذ الراحلة في سفر الهجرة إلا بثمنها دليل على اختصاص الهجرة وتميزها بهذا الفضل الرفيع الذي خصها به رسول الله ﷺ، وبهذا الاختصاص المميز للهجرة - وما فيها من مفارقة الوطن والأهل والولد والأصدقاء والعشراء والمال واحتمال شظف العيش وضيق المستقر، احتساباً لوجه الله وتطلباً لرضاه، وقياماً بالدعوة إلى دينه وإعلاء كلمته - فضَّل الله المهاجرين على سائر فئات أهل الإيمان وأنزلهم منزلة الحمد من فاتحة الكتاب، فكانوا -رضي الله عنهم- أفضل الخلق وأكرمهم على الله بعد النبيين والمرسلين.

وكان رسول الله ﷺ وصاحبه الصدِّيق -رضي الله عنه- قد واعدا دليلهما عبد الله بن أريقط وكان هادياً خرِّيتاً حاذقاً بمعرفة الطرق والمنازل وهو على شركه، فأمناه ودفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، وعمدا إلى غار ثور بأسفل مكة، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما أخبار ما يقوله الناس في شأنهما نهاره ثم يأتيهما ليلاً بأخبار ما كان في ذلك اليوم.

وأمر أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم

يريحها عليهما إذا أمسى فيحتلبا من ألبانها، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام.

بدء سير الركب الميمون المبارك:

وفي صبح الليلة الثالثة جاءهما دليلهما ابن أريقط براحلتيهما وبعير له، وقبل أن يركبا تكلم رسول الله ﷺ مستشعراً ما يحيط بهذا السفر من أخطار وشدائد تتطلب لوناً من الصبر والرضا، واللجوء إلى الله تعالى، والاعتصام به في ضراعة العبودية وذل الاستكانة إلى رحمته.

قال ابن كثير في البداية وأبو نُعَيم في الدلائل: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة قال: «الحمد لله الذي خلقني ولم أكُ شيئاً، اللم أعنِّي على هول الدنيا، وبوائق الدهر، ومصائب الليالي والأيام. اللهم اصحبني في سفري، واخلفني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني، ولك فذللني وعلى صالح خُلقي فقومني، وإليك ربي فحببني، وإلى الناس فلا تكلني. رب المستضعفين وأنت ربي، أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السموات والأرض، وكشفت به الظلمات وصلح عليه أمر الأولين والآخرين أن تحل علي غضبك وتنزل بي سخطك، لك العتبى عندي خير ما استطعت ولا حول ولا قوة إلا بك».

وقد تحرك الركب المبارك محفوفاً برعاية الله تلحظه وتسدده، وهدايته تقوده وترشده، وقد سلك بهم الدليل طريق السواحل في مهايع غير مطروقة حتى بلغوا بعد بضعة عشر يوماً

قباء، وهي أول منازل المدينة، فنزلا في بني عمرو بن عوف خير منزل آمنين مطاعين.

آيات الله وجند نصره في طريق الهجرة:

وقد توالت أحداث الرعاية الربانية على رسول الله ﷺ وصاحبه الصدِّيق منذ خروجهما من بيت أبي بكر -رضي الله عنه- عامدين إلى غار ثـور، وتكاثرت روايات الوقائع والأحداث في هذه الرحلة الإيمانيـة، ورويت فيها أمور إعجازية أكرم الله بها نبيه ﷺ ليربط علـى قلبه، ويثبـت بها قدمـه، ويؤنس فؤاده، ويخفـف عه أثقال مـا لقي من أزمـات وما يتوقع من شـدائد وأهوال فـي رحلة كانت الفيصـل بين مرحلتي الرسـالة الخالـدة: مرحلة الكفـاح المرير والنضـال الصبـور فـي مكـة، ومرحلـة الفتـح المبين وتأسـيس البناء الشـامخ لدولة الإسـلام فـي نظامها العقيـدي والاجتماعي والاقتصـادي والسياسـي والتربـوي والخلقـي، وتنزل التشـريع الحكيـم المحكم الذي يجمع في إطاره هذه الأوضاع والتنظيمات لخير الإنسـانية على هذه الأرض على أسس العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات للأفراد والجماعات.

وهذه المرحلة كانت الهجرة النبوية هي حجر الزاوية فيها، واللبنة الأولـى فـي بنائها؛ لأنها مرحلة بـدأ فيها نضال جديد مـن نوع تكافأ أولاً مع قوى الشـر المادية، فردها على أعقابها مدحورة، ثم اسـتبحر وتوالت انتصاراته هادرة الأمواج، قوية الانطلاق، قاهرة الردع، سريعة الحركة، جياشة المد، فوّارة الاندفاع، عظيمة المنح والعطاء.

منهجنا في البحث وموقفنا من روايات الهجرة:

وموقفنا في البحث من روايات الأحداث أننا نؤمن إيماناً لا يخالجه شك أن قدرة الله تعالى لا يتعاظمها في الكون شيء، وأن الله تعالى يجري على يدي رسوله ﷺ ما يشاء من الآيات تكريماً له، وتشريفاً لمقامه، وتعظيماً لمكانته، وإظهاراً لسمو منزلته عنده، دون أن تقف سنن الكون العامة التي أقام الله نظامه عليها أمام اقتدار الله تعالى على إحداث سنن خاصة يأتي بها لحكمة تقتضيها بصورتها الخاصة ولا يخرجها ذلك عن إطار السنن الإلهية التي يسير عليها نظام الوجود في هذه الحياة، والله فعال لما يريد لا يُسأل عما يفعل.

بيد أننا لا نؤمن بالروايات التي تجيء بوقائع إعجازية تخرق نواميس سنن الله العامة في الكون إلا إذا ثبت لدينا سندها صحيحاً بغير معارض، متصل النقل المضبوط إلى رسول الله ﷺ، ولكنا لا نسارع إلى رد الروايات التي لا يعرف في سندها كذاب وضاع للحديث، ولا تصل إلى درجة الصحة، ونقف منها موقف التسليم بإمكانها ولا نتخذها دليلاً على إثبات أو نفي.

هذا مذهبنا الذي قررناه بتفصيل وإسهاب في المقدمات الممهدات، وهو الذي ندين الله عليه، ونعتقده، ونؤمن به.

على ضوء ذلك ننظر في بعض الروايات التي وردت فيها وقائع أحداث في قصة الهجرة النبوية تعد آيات تدخل في إطار الإعجاز البشري، وتجري على سنن كونية خاصة تخضع لقهر الاقتدار

الإلهي لعناصر الطبيعة المبثوثة في الكون كله.

ولسنا نقصد بذلك إلى استقصاء الوقائع المروية فيها، لأن كثيراً منها ضعفه الأئمة من جهة إسناده وهذا مما لا نعول عليه، وإنما نقصد إلى ذكر الوقائع التي استفاضت رواياتها بأسانيد لم يذكر فيها معروف بالكذب ووضع الحديث، لأن مثل هذه الروايات النظيفة قد يزول عنها الضعف وهي في جملتها داخلة في احتمال وقائعها تحت قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٤٠) فالآية تذكر سنة من سنن الله تعالى الخاصة مع نبيه ﷺ، يقتضيها الموقف أن تكون في واقع الحياة المشهود.

وفي هذه السنة الخاصة يبين الله تعالى أنه تعهد نبيه محمداً ﷺ في مراحل حياته برعايته وتربيته، وفضّله ونشّأه على أكرم مكارم الأخلاق، وجعله محبباً إلى القلوب حباً طبيعياً حتى بعثه برسالته، فشنفت له أفئدة الوثنيين المشركين بالعداوة(٢٣)، ووقفوا في طريق دعوته يعوقونها عن سيرها، فتولاه الله تعالى

(٢٣) شَنَفَ له، مال نحوه ومنه قولهم: تكلم فشنفت له الآذان.

بنصره، وآزره بحمايته في مواقف لم يكن فيها معه أحد إلا الله بقوته وقهره ومحكم تدبيره حتى كنتم أنتم معشر المؤمنين صنيعة يده بنصر الله له.

عتاب الله لعامة المؤمنين ما عدا أبي بكر الصديق -رضي الله عنه:

وهذا عتاب للمؤمنين كافة ما عدا الصديق أبا بكر -رضي الله عنه- الذي لم يترك رسول الله ﷺ في موقف من مواقف الأزمات والشدائد، ولم تسترخ عزيمته قط في أشد المواقف، ولذلك لم يدخل في عموم الخطاب وقد شمله النداء بوصف التشريف: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ الذي جاء عاقباً له خطاب العتاب في عنف وشدة: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التوبة: ٣٨، ٣٩).

فالله تعالى يعاتب المؤمنين على تقاعسهم عن نصرة نبيه ﷺ استرخاء لمتع الدنيا المقرونة بالمنغصات المنتهية إلى الزوال، بعد أن ندبهم لنصرته فتثاقلوا مخلدين إلى الأرض، مستعذبين الراحة والترهل، راغبين بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ.

وكان هذا درساً في تربية المؤمنين وتطهير أنفسهم من الحرص

إلى الركون للدنيا ومتعها، درساً جعل من المجتمع المسلم مجتمع شجاعة وبطولة وتضحية في سبيل نشر الدعوة وحماية الرسالة مما يتكاءدها من عقبات وعوائق [٢٤]، يقيمها أعداؤها في طريق سيرها لوقف مدّها وصد تيارها الزخار.

ثم أعلم الله المؤمنين في أسلوب صارم أنهم إلاّ يستجيبوا لداعي العزة وينفروا للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله إذا استنفرهم رسول الله ﷺ؛ يعذبهم الله بتسليط عدوهم عليهم، وسلبهم ما غشي قلوبهم من متع الدنيا وشهواتها والاسترواح إلى زخارفها، ويستبدل بهم قوماً غيرهم لينقي ساحة الإيمان من ضعف العزائم ووهن القوى وترهل الترف المفسد للفطر الأصيلة، و﴿ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ (المائدة: ٥٤)، وهو سبحانه غني عنكم، يعز دينه وينصر نبيه ﷺ بمن شاء وما شاء من خلقه ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الفتح: ٤) فلا منة من الخلق على دين الله، ولا على رسوله ﷺ، ولكن الله تعالى يمنُّ على من يشاء من عباده، لا يضره من تقاعس عن نصرة دينه والجهاد لإعلاء كلمته، لأنه القوي المقتدر لا يتعاظم قدرته شيء في الأرض ولا في السماء، ثم ذكرهم بما لا يُنسى من فضله واقتداره فقال لهم: إلا تنصروا رسولي لنصرة ديني الذي أُخرجكم به من الظلمات إلى النور، فليس به حاجة إليكم وإلى

(٢٤) يقولون: (عقبة كئود وكأداء) بمعنى صعبة المرتقى. (المجلة).

نصرتكـم، لأن الله تعالـى تولاه منذ أشـرق نور وجـوده على آفاق الحياة، ورباه بفضله ونشأه على عينه أميناً صدوقاً متحلياً بأفضل الشمائل منعوتاً بأكمل المكارم حتى بعثه رحمة للعالمين ورسولا إلى النـاس أجمعين، فدعاهم لما يحييهم، فأشـاحوا عنه وكذبوه وآذوه واسـتهزءوا به، وقالـوا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ (الفرقـان: ٤١) .. وتجمعوا لعداوته وتعويق رسـالته وكانوا إلباً عليـه، يمكرون بـه، ويأتمـرون لقتله، فنصرته علـى جموعهم، ورددت مكرهم به إلى نحورهم، وأيدته بقوتي واقتداري وجنودي من خلقي، وأظفرته على أعدائه بقوتي وقهري، وأعززته بعزي يوم أن كان في أشد مضايق الأزمات وحيداً ليس معه أحد سوى صديقه وصاحبه أبي بكر -رضي الله عنه-، وقد أويا إلى غار في ذروة جبل ثـور، ومكة بلدة ترقص بملئها وطواغيتهـا على بركان من الحقد الفاجـر والعتـو الكفور، بعد إذ أخرجته مـن بيته في جوف الليل، وخرجَـتْ إذ علمت أنه نجا من مكرها وكيدها تبحث عنه وكأنما مسّ ملأها تخبط من الشـياطين لتشـفي بقتله غيظها، حتى وصل بها قَافَتُها وقُصّاص الأثر لها(٢٥)، حيث وقفوا مذهولين تسـتحوذ عليهـم الحيرة والدهش على فوهة الغار، وهم يقولون لها: ما جاز طِلْبَتُكم هذا الغار(٢٦)، وهنا انقطع عنا الأثر.

ومحمـد ﷺ وصاحبه وصديقـه أبو بكر -رضـي الله عنه- في

(٢٥) قافة جمع (قائف). وهو متتبع الأثر.
(٢٦) طِلْبتُكم أي الشخص الذي تطلبونه.

جوف الغار لا يجاوزون بابه لضيقه، لو نظر أحدهم إلى قدميه لرآهما، ورعب أبو بكر رعباً شديداً خوفاً على رسول الله ﷺ، فألّ، وأنّ، وتفجَّع، وبكى، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» فقال الصديق -رضي الله عنه-: ما على نفسي أبكي!؟ ولكن أخاف أن أرى فيك ما أكره، فقال له رسول الله ﷺ ما حكاه الله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠)

فتنزلت السكينة متحدِّرة من قلب رسول الله ﷺ إلى قلب صاحبه وصديقه فثبت ثبوت الشامخات الرواسي، وجاء الفجّار بعصيهم وهراواتهم وسائر ما ملكت أيديهم من سلاح إلى الغار ينفثون حقداً مغيظاً، ونظر بعضهم في الغار فرأى نسج العنكبوت على باب الغار في صورة يقول من رآها: إنها أقدم من ميلاد محمد ﷺ ورأى شجرة من شجر البادية تسد بفروعها باب الغار، فصدّهم ذلك عن استبراء الغار لمعرفة من فيه، ودرأ الله تعالى عن رسوله ﷺ الطلب، ودحر الطالبين مردودين على أعقاب الخيبة.

وأقام رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق في الغار ثلاث ليال في حراسة الله ورعايته، لا يعرف أحد مكانهما إلا عبد الله بن أبي بكر - وكان يوافيهما بأخبار ما يقال عنهما - وإلا عامر بن فهيرة مولى أبي بكر -رضي الله عنهما- يرعى عليهما منيحة من غنم أبي بكر -رضي الله عنه-، يشربان من ألبانها، وإلا أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر -رضي الله عنهما-، تأتيهما بالطعام من بيت أبي بكر، وإلا الدليل الخريت الذي استأجراه ودفعا إليه راحلتيهما

وهــو على كفره، فأمِنــاه وواعداه الغار صبح ثــلاث، وهدأ الطلب الفاجــر، وداخــل طواغيــت المــلأ اليــأس، وجعلوا لمــن يأتيهما بمحمــد - ﷺ - مئــة من الإبل، وفــي صبح الليلــة الثالثة أتاهما الدليل براحلتيهمــا ومعه بعيره، فخرجا من الغار وركبا متوجهين إلى الله في هجرتهما على اســم الله وبركاته، وسار معهما عامر بن فهيرة رديفاً لأبي بكر يخدمهما في طريق الهجرة، والدليل الماهر يدلهُما على الطريق.

* * *

يأبى العقلانيون الذين يؤلهون العقل البشــري إلا أن يتحكموا فــي نظــام الحياة ويقيدوا ســنن الله تعالى في تدبيــر الكون وإقامة نظامــه بما يدركه هــذا العقل المحدود وما يطمئن إلى الإيمان به، ويرفضــون كل حقيقــة تتعاظــم علــى العقل أن تخضع لنواميســه وقوانينــه المحــدودة بإدراكاتــه، وقــد رددنا عليهم هــذا الجمود الفكــري وأريناهــم كثيــراً من الحقائــق التي ما يــزال العقل يقف مشــدوهاً أمامها يؤمن بوجودها ولا يعرف حقيقتها، وحســبنا في التمثيل على ذلك (الحياة) فهي موجودة في كيان كل حي، يؤمن بوجودهــا، ولا يعــرف حقيقتها العقل البشــري ولا يجد لإنكارها سبيلاً، وإلا وجب أن ينكر وجود نفسه، وهو عاجز كل العجز عن إدراك ما هي الحياة؟

فتحكيم العقل في نواميس الكون شــطط يجب أن يتخلص منه البحث في الحكم على الأشياء، وكما أن لله تعالى سنناً عامة يقوم

عليها النظام العام للكون ؛ فلله تعالى سنن خاصة يقوم عليها نظام الأمور الخاصة التي تتصل بالتعبد والوحي والنبوة وآيات الإعجاز، وسائر الغيبيات من الحقائق التي لا يمكن إخضاع تصورها ووجودها لإدراك العقل.

فالأساس العلمي في هذه الأمور وإثبات وقائعها وأحداثها إنما يقوم على دعائم ثبوت الإخبار بها والتحدث عنها بأسانيد مضبوطة صحيحة الاتصال إلى من لا يتطرق الوهم إلى قوله أو فعله أو إقراره، وهو فقط رسول الله ﷺ المنبئ عن الله خالق الكون.

فإذا قرأنا في قصة الهجرة النبوية أن النبي ﷺ أخبره أمين الوحي جبريل عليه السلام بمكر قريش به وائتمارها لتقتله غيلة على فراشه في جوف بيته، وأنه خرج على الذين يترصدونه فلم يروه وهم أيقاظ، تدور أعينهم في محاجرها كالذي يغشى عليه من الموت، وإنه لم يترك واحداً منهم إلا عفّر رأسه بالتراب، وذهب إلى حيث أراد، فلما صحوا من سكرة ذهولهم ورأوا ما انتهى إليه مكرهم من خزي جلّل جباههم بعار الذل والهوان، ومن خذلان أذلّ استكبارهم جن جنونهم، وتلظى في أفئدتهم حريق الغيظ، وراحوا يضربون في كل فج من فجاج مكة ووديانها وشعابها، وركبوا في البحث عن محمد ﷺ الذي توهموا أنه في قبضة أيديهم كل صعب مستصعب، وجعلوا ديته لمن يأتيهم به، وأرسلوا بذلك إلى أهل المياه والضاربين طنبهم في سفوح الجبال ومشارف الطرق،

واقتصُّــوا الأثــر بمهرة القافة حتى وصلوا إلى الغــار الذي أوى إليه رســول الله ﷺ ومعــه صاحبه وصديقه أبو بكــر -رضي الله عنه-، وهنا عند باب الغار قال لهم قائفهم: هاهنا انقطع الأثر، ولا أدري أخذ يميناً أم شمالاً أم صعد الجبل؟

وأقبــل فتيان قريش بعصيهم وهراواتهم وســيوفهم حتى وقفوا علــى باب الغار، فقال بعضهم ادخلوا الغار، فقال أحد شــياطينهم أميــة بــن خلف: ومــا أَرَبُكم في الغــار؟[٢٧] إن فيــه لعنكبوتاً أقدم مــن ميــلاد محمد - ﷺ - وقال غيره: لو دخل أحد الغار لتفســخ العنكبوت.

إذا قرأنــا هذا وأمثاله وهو مســتفيض مشــهر لا يكاد يخلو منه كتاب منذ ألفّ أهل العلم قديماً وحديثاً في السيرة النبوية ودونوا أحداثها ووقائعها؛ فلا يستقيم في شرعة البحث العلمي المسارعة إلى التشــكيك في وقوعه بتوهم أن العقــل لا يفقهه ولا يدركه ولا يطمئن إلى التسليم به، لأنه أمر يخالف ما ألف الناس في مداركهم لحقائق الأشياء وما اعتادته الطبائع البشرية.

وقصة نســج العنكبوت على باب الغار عقب دخول رســول الله ﷺ إلــى جوفــه رواهــا الإمام أبو بكــر البزار في مســنده من طريق أبــي مصعب المكّي عن ثلاثة من أكابــر الصحابة رضي الله عنهم.

(٢٧) الأرَب الغرض والمقصد.

قال أبو مصعب : أدركت زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك ، يتحدثون أن النبي ﷺ لما كان ليلة الغار أمر الله عز وجل العنكبوت فنسجت على وجه الغار ، ورواها الحافظ ابن عساكر ، وفي هاتين الروايتين ذكر الشجرة والحمامتين الوحشيتين مع نسج العنكبوت ، ورواها الإمام أحمد في مسنده من حديث طويل عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (الأنفال : ٣٠) . وفي هذا الحديث : لما بلغوا – أي فتيان قريش – الجبل اختلط عليهم فتصعدوا في الجبل ، فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا : لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه .

قال الإمام ابن كثير في البداية : وهذا إسناد حسن وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار ، وذلك من حماية الله رسوله ﷺ .

وروى ابن كثير عن الحسن ، قال : انطلق النبي ﷺ وأبو بكر إلى الغار ، وجاءت قريش يطلبون النبي ﷺ وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسج العنكبوت قالوا : لم يدخل أحد ، وكان النبي ﷺ قائمًا يصلي وأبو بكر يرتقب ، فقال أبو بكر للنبي ﷺ : هؤلاء قومك يطلبونك ، أما والله ما على نفسي أئلّ[٢٨] ، ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره ،

(٢٨) الألُّ والأليلة ما يجده الإنسان من وجع الحمى ونحوها دون الأنين.

فقال له النبي ﷺ «يا أبا بكر، لا تخف إن الله معنا».

قال ابن كثير: وهذا مرسل عن الحسن وهو حسن بحاله من الشاهد.

ومن أعجب ما روي من وقائع غار ثور ما ذكره ابن كثير في البداية قال: وقد ذكر بعض أهل السيرة أن أبا بكر لمَّا قال للنبي ﷺ: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال له النبي ﷺ: «لو جاءونا من هاهنا لذهبنا من هنا» فنظر: الصدِّيق رضي الله عنه إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به وسفينة مشدودة إلى جانبه. قال ابن كثير: إن هذا ليس بمنكر من حيث القدرة العظيمة، ولكن لم يرد ذلك بإسناد قوي ولا ضعيف، ولسنا نثبت شيئًا من تلقاء أنفسنا، ولكن ما صح سنده أو حسن قلنا به.

وهذا التعليق من هذا الإمام الناقد العليم الذي يجمع بين العلم المصفى والإيمان الزكي هو ما يجب أن يقف عنده الناظرون في آيات الله وأعاجيبه التي يجريها على يد نبيه ﷺ، فكل ما يثبت منها بسند صحيح أو حسن يجب الإيمان به واعتقاده، وما لم يثبت كذلك يوقف فيه، فلا يرد ولا يقبل ما لم يكن مرويًا عن كذاب يضع الأحاديث ويخترع الروايات فهذا يجب رده وبهرجته وإظهار زيفه.

وقد روى ابن حزم في كتابه (جوامع السـيرة) حادثةً قد تكون أعجب من الحادثة السابقة في رواية ابن كثير أو هي على الأقل من واديهـا، وابن حزم يجزم بحادثته جزم من شـاهد ورأى ويتحدى، قـال: فلما فقدَتْـه - أي النبيَّ ﷺ - قريشٌ اتبعته بقائف معروف، فقاف الأثر حتى وقـف عند الغار، فقال: هنا انقطع الأثر، فنظروا فإذا العنكبوت وقد نسـج على فم الغار من وقته فأيقنوا أنه لا أحد فيه فرجعوا.

ثم قال ابن حزم: وفتح الله تعالى في الوقت في جانب الغار بابًا واسـعًا خرجا منـه في صخرة صلد صماء، لا تؤثـر فيها المعاول، فأمالهـا الله عز وجل، وهي إلى اليوم ظاهرة لا يشـك مَن رآها أنها لـو ردت لسـدت المكان، ولا يختلف أحد أن ذلـك الباب لو كان هنالك حينئذ لرأته قريش.

وابن حزم لم يسند روايته إلى أحد، ولكنه اعتمد على مشاهدته للمـكان والباب الذي فُتح في جانب الغـار غير بابه الأصيل الذي دخـل منه النبي ﷺ هو وصاحبه الصديق رضي الله عنه، ويقرر ابن حزم أن هذا الباب الذي فُتح في جانب الغار في صخرة صلدة صماء لم يكن موجودًا وقت أن كانت قريش وقافتها عند باب الغار، وأنه لـو كان موجودًا لرأتـه جهارًا، وقرر أيضًا أن هـذه الصخرة التي لا تؤثـر فيها المعاول لو رُدت إلى مكانها لسـدت البـاب الذي فُتح فيها بإمالتها إمالةً ظاهرةً يراها كل أحد يشاهدها.

ولا ندري إن كان هذا التشابه بين قصة ابن كثير التي جاء فيها أن الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وقصة ابن حزم التي يقول فيها: وفتح الله تعالى في الوقت في جانب الغار بابًا واسعًا خرجا منه يجعل من القصتين قصة واحدة تصرَّف فيها الرواة بالزيادة والحذف، أم أنهما قصتان في واقعتين والعلم عند الله، ونلاحظ هنا أن ابن كثير كان جيد النقد لقصته وأمثالها.

وبالتأمل في قول الله عز شأنه: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ (التوبة: ٤٠) نجده بعمومه المشعر به تنكيرُ لفظ (جنود) يدل على أن كلّ ما حمى الله به نبيه محمدًا ﷺ من كيد أعدائه هو من جند الله، ويدل لذلك ما رواه أبو نُعَيم عن محمد بن إبراهيم التيمي أن النبي ﷺ نهى عن قتل العنكبوت وقال: «إنها من جنود الله» ولا وجه لتخصيص جند الله بالملائكة في هذا الموضع وأمثاله.

وللتخصيص بالملائكة وجه في الوقائع الحربية كوقعة بدر، وحنين ظاهر، والقرآن الكريم صرّح بإنزال الملائكة محاربين في صفوف المؤمنين، وهذا توقيف قاطع يجب الوقوف عنده والإيمان به، ولكنه لا يمنع أن يكون لله تعالى جنود من غير الملائكة أيّد بهم نبيه محمدًا ﷺ في الوقائع الحربية، كما لا يمنع أن يكون قد أيَّد الله نبيه ﷺ بالملائكة مع أنواع أخرى من جنده في غير الوقائع الحربية ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (المدثر: ٣١).

كيف تمت الهجرة النبوية؟

حديث أبي بكر عن البراء بن عازب في وصف رحلة الهجرة:

مضى الركبُ الميمون في طريقه إلى المدينة المنورة، تحفُّه رعاية الله وعنايته سالكًا به دليله الحاذق الماهر الأمين طريق السواحل.

ويترك القلم متواريًا في حياء حَييٍّ الحديث إلى الشاهد الذي لا يُقال له، إلى الصديق أبي بكر – رضي الله عنه – الصاحب الأول إسلامًا، والصاحب الفرد هجرةً، يقول الإمام البخاري في الجامع الصحيح: حدثنا عبدالله بن رجاء، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عن البراء قال: اشترى أبو بكر – رضي الله عنه – من عازب رَحْلًا بثلاثة عشر درهمًا، فقال أبو بكر لعازب: مُر البراء فليحمل إليَّ رحلي، فقال عازب: لا، حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حينما خرجتما من مكة، والمشركون يطلبونكم؟ قال: ارتحلنا من مكة فأحيينا – أو سرينا – ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا، وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظل فآوي إليه، فإذا صخرة أتيتها فنظرت بقية ظل لها فسويته ثم فرشت للنبي ﷺ فيه، ثم قلت له: اضطجع يا نبي الله، فاضطجع النبي ﷺ، ثم انطلقت أنظر ما حولي، هل أرى من الطلب أحدًا؟ فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة، يريد منها الذي أردنا، فسألته فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من قريش، سمَّاه فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، قلت: أنت حالب لنا؟ قال: نعم،

فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه، فقال: هكذا، ضرب إحدى كفّيه بالأخرى فحلب لي كثبة من لبن - أي شيئًا ليس له قدر مقدّر - وفُسِّر بحلبة خفيفة، وقد جعلت لرسول الله ﷺ إداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فانطلقت به إلى النبي ﷺ، فوافقته قد استيقظ، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت، ثم قلت: قد آن الرحيل يا رسول الله؟ قال «بلى» فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، فقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠)

وقد رُوي هذا الحديث في صحيح البخاري في عدة مواضع وفي بعضها اختلاف لا يخرج الحديث عن المعنى المقصود.

وقد آن للقلم أن يتخفف من حيائه ليجول مقتفيًا أثر الصدِّيق في رياض ما قصه من رحلة الهجرة النبوية بعد الخروج من غار ثور، منبِّهًا على لوامع الإيمان، وومضات الإخلاص، ووفاء الحب.

وأول ما يلفت النظر في هذا الحديث ما بدا من عازب - رضي الله عنه - من الحرص على سماع ما وقع للنبي ﷺ وصاحبه الصدِّيق - رضي الله عنه - في رحلتهما الشاقة المحفوفة بأعظم الأخطار، اشتراطه - على سبيل المكارمة بين الإخوة - أن لا يرسل ابنه البراء مع الصديق ليحمل له رحله حتى يحدثهم عمَّا قابلهم في طريقهم حينما خرجا من مكة مهاجرين، والمشركون

يجدُّون في طلبهم، ليحيط المؤمنون علمًا بما لقي رسول الله ﷺ ومعه صاحبه الصدِّيق - رضي الله عنه - من مشقة وشدة في رحلته المباركة، ليكون ذلك نبراسًا يضيء لهم طريق الجهاد في سبيل نشر الدعوة وتبليغ الرسالة، ونموذجًا للصبر واحتمال المشاق في سبيل إعلاء كلمة الحق والهدى والنور.

وثاني أمر يلفت النظر في هذا الحديث صدق حب أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - للنبي ﷺ، وبالغ حرصه على راحته، وتوليه خدمته بنفسه مع وجود عامر بن فهيرة مولى أبي بكر - رضي الله عنه - الذي اصطحباه ليخدمهما في رحلتهما.

فالصديق - رضي الله عنه - حينما شعر بمشقة السفر على رسول الله ﷺ - وقد سارا يومًا وليلة ونصف اليوم حتى دخلا في ظهيرته، لأنهما خرجا من الغار في صبح الليلة الثالثة لإيوائهما إليه كما جاء في حديث الهجرة عند البخاري أيضًا. وسارا يومهما وليلتهما وصدر يوم تلك الليلة حتى قام قائم الظهيرة من ذلك اليوم - رمى ببصره في أرجاء الأفق، هل يرى من ظل فيأوي إليه ليهيئ للنبي ﷺ مقيلًا يأخذ فيه بعض الراحة، وإذا به يلمح صخرة فيأتيها، وينظر فإذا بقية ظل لهذه الصخرة فيسويه ويفرش للنبي ﷺ فروة كانت معه، ويطلب إلى النبي ﷺ أن يضطجع فوقها ليأخذ ﷺ قسطًا من الراحة بعد هذا السفر المضني في ظلام الليل وهجير النهار، ويضطجع النبي ﷺ، ثم يمضي أبو بكر إلى أين؟ إلى حيث ينظر ويستبرئ ما حوله، هل يرى من الطلب أحدًا من

الأعــداء، أو ممن طمعوا فــي جعالتهم لمن يأتيهــم بمحمد ﷺ، وإذا هــو براعــي غنم يســوق غنمه إلى الصخرة يطلــب الراحة في ظلهــا، فيســأله أبو بكر ليتعرف عليه، هل هــو في مخبره كما هو في مظهره راعي غنم، يريد شــيئًا من الراحــة في ظل الصخرة؟ أو هــو في مخبره متســتر بمظهــره ويقول أبو بكر له بعد أن كشــف حالــه واطمأن إليــه: لمن أنت يا غلام؟ فيجيــب الغلام بأنه لرجل مــن قريش، ســماه فعرفه أبو بكر - رضــي الله عنه -، ويطمئن أبو بكر - رضي الله عنه - إلى أنه لا طلب يخافه.

ويســأله أبــو بكر: هل فــي غنمك مــن لبن؟ ويجيــب الغلام: نعــم، ويقــول له أبو بكــر - رضي الله عنه -: هــل أنت حالب لنا، قال: نعم، ويأمره أبو بكر أن يحلب لهم، ويســرع الغلام إلى شــاة فيعتقلهــا، ولكــن أبا بكر - رضي الله عنــه - يأمر الغلام أن ينفض ضرع الشــاة من الغبار، ثم يأمره أن ينفض كفيه ويستجيب الغلام في ســماحة وادعة، ويضرب إحدى كفيــه بالأخرى، وحلب لأبي بكر - رضي الله عنه - كثبة يرتوي منها النبي ﷺ.

وكان أبــو بكــر - رضي الله عنه - قد جعل لرســول الله ﷺ إداوة أعدهــا مطهّرة نظيفة محصنة من التلــوث بالغبار، وجعل على فمها خرقة لتصفية اللبن مما عســى أن يكون قــد علق به أثناء الحلب من الشــعر والقذر والتراب، وأعــدّ ماء طيبًا ليبرد بــه اللبن، فصب منه على اللبن حتى برد أسفله، وانطلق به إلى النبي ﷺ وهو في مضجعه في ظل الصخرة، فوافق وصولُه إليه اســتيقاظَه، وقدم له ﷺ الإداوة

وفيها كثبة اللبن، وطلب إليه ﷺ أن يشرب فشرب حتى رضي أبو بكر وهو أعلم بحاجة النبي ﷺ إلى القدر الذي يرضيه بعد السفر الطويل المتتابع، ثم تلطف أبو بكر بأدب الخطاب فقال للنبي ﷺ: قد آن الرحيل يا رسول الله؟ قال: «بلى» فارتحلوا والطلب لم يفتر، ولكن الله حفظهم برعايته، فلم يدركهم أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له، فرجف أبو بكر - رضي الله عنه - ورعب خوفًا على رسول الله ﷺ أن يناله ما يؤذيه، فقال معبِّرًا عن ذات نفسه، وما هجس فيها: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، ويجيبه سيد المرسلين وهو في مشهد اليقين: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ كأنه يذكره بموقف الغار، ليحرك في قلبه السكينة التي أفاض عليه من آثار إنزالها عليه إذ تنزلت ساعة «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما» فسكن قلب الصديق وعاودته الطمأنينة وبرد اليقين.

هذه قصة تتحدث عن مشهد من مشاهد الهجرة النبوية لم يكن فيها شيء من آيات الإعجاز الخارق لشيء من نواميس الطبيعة في ظواهرها، ولكنها مليئة بمشاهد الإعجاز الإنساني الذي ينبع من ينابيع مداخل النفس الإنسانية المفعمة بالحب والإخلاص الذي لا يضن بالنفس فداء للفكرة، والفكرة هنا هي العقيدة والإيمان، والإيثار لرمز الحياة في أفقها المضيء.

كان أبو بكر - رضي الله عنه - رفيق رسول الله ﷺ في هجرته، وصاحبه في الغار الذي أقاما فيه ثلاث ليال ثم خرجا منه مرتحلين إلى المدينة المنورة، والطلب من طغاة الوثنية والشرك يناهضهما،

فجدًّا في السير سيرًا متواصلًا أرهقهما وأضعف قوة رواحلهما في ملتهـب من الحر الذي يتنفس من فيح جهنم، وزاد مفقود، والنبي ﷺ يمضي قُدُمًا لا يبالي نصبًا يلحقه، ولا جهدًا يناله، وأبو بكر مشغول الفكر والنظر بشدة الحرص على سلامة رسول الله ﷺ يفديه بنفسه، لا يبدؤه بحديث يقطع عليه عزيمته، حتى إذا قام قائم الظهيرة من اليوم بعد ليلة كاملة ويوم قبلها أحس أبو بكر – رضي الله عنه – أن اشتغاله بمراقبة الطلب شغله عن التفكير في راحة رسول الله ﷺ فتنبه لذلك، وفكر في أن يتيح له ﷺ قسطا من الراحة ليقوى على السير، والغاية بعيدة والسفر شاق، فرمى ببصره في مهمه الأرض(٢٩) ليرى شيئًا من الظل ليهيئه للنبي ﷺ حتى يأخذ فيه بعض الراحة، فأبصر بصخرة أتاها، فإذا بقية من ظلها فسوّاها وأزال ما فيه من عوج ونتوءات وفرشه بما معه، ثم طلب إلى النبي ﷺ أن يضطجع ليستريح، فاضطجع عليه الصلاة والسلام ونام، وعاد أبو بكر إلى ما كان يشغله على رسول الله ﷺ من الطلب، فنظر إلى ما حوله فرأى راعيًا يسوق غنمه إلى الصخرة يريد الراحة بغنمه في ظلها، فسأله حتى عرفه وعرف صاحبَه، صاحبَ الغنم، وطلب إليه في تلطف أن يحلب له بعد أن أمره بالتنظيف فحلب له كثبة من اللبن، وقد أعد أبو بكر إداوة على فمها خرقة وصب على اللبن حتى برد أسفله، وذهب به إلى النبي ﷺ فوافقه قد استيقظ وطلب إليه أن يشرب مما أعده له من اللبن، فشرب رسول الله ﷺ كفايته حتى رضي أبو بكر ثم ارتحلا محفوفين برعاية الله وعنايته

(٢٩) المهمه: الأرض الواسعة المقفرة.

قصة سراقة بن مالك الجعشمي

وقصة سراقة بن مالك الجعشمي المدلجي التي جاءت في حديث أبي بكر من حديث البراء بن عازب رواها البخاري بما فيها من آيات وعجائب الإعجاز التي أكرم الله بها نبيه محمدا ﷺ مستوفاة في باب الهجرة النبوية، قال البخاري بالسند الموصول إلى عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها، قال ابن شهاب، وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي - وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم - أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن مالك يقول: جاءنا رُسُل كفار قريش، يجعلون في رسول الله وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُدْلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال: يا سراقة، إني قد رأيت آنفًا أسودة بالساحل أراها محمدًا وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلانًا وفلانا، انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي - وهي من وراء أكمة فتحبسها عليّ وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزجه الأرض، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها، أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي - وعصيت الأزلام - تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة النبي ﷺ وهو

لا يلتفت، وأبو بكر يُكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغت الركبتين، فخررت عنها ثم زجرتها، فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلمّا استوت قائمة إذا لأثر يديها عنان ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني، ولم يسألاني إلا أن قال - أي رسول الله ﷺ- : أخْفِ عنا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب لي في رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ.

وفي هذا الحديث من الآيات الباهرة والعجائب الكونية الظاهرة ما لا يحتاج إلى تعليق وهي من قبيل حفاوة الله تعالى بنبيه وحمايته ونصره بما لا قِبَلَ لأحد من الخلق أن يصنعه ويقوم به.

قصة أم مَعْبَد
ولطائف آياتها ووصفها رسول الله لزوجها

وقصة أم معبد - كما ذكر الزرقاني - رواها البخاري في التاريخ، وأخرجها البغوي وابن خزيمة، والحاكم والبيهقي صاحب الغيلانيات، وابن عبد البر، وابن شاهين، وابن السكن، والطبراني، وغيرهم عن أخي أم معبد، حُبيش صاحب رسول الله ﷺ قال: لما خرج رسول الله ﷺ في الهجرة ومعه أبو بكر وابن فهيرة وابن أريقط يدلهم على الطريق مروا بقديد على أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية، وكانت برزة جلدة، تحتبي بفناء القبة، ثم تسقي وتطعم مَن يمر بها، وكان القوم مُرْمِلين مُسْنِتين(٣٠)، فطلبوا لبنًا، أو لحمًا، أو تمرًا، يشترونه منها، فلم يجدوا عندها شيئًا، وقالت والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القرى، فنظر ﷺ إلى شاة في كِسْر الخيمة خلّفها الجهد عن الغنم، فسألها ﷺ: «هل بها من لبن»؟ فقالت: هي أجهد من ذلك، فقال ﷺ: «أتأذنين أن أحلبها؟» فقالت: نعم بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلبًا فاحلبها، فدعا ﷺ بالشاة فاعتقلها، ومسح ضرعها وسمى الله تعالى، فتفاجت ودرَّت ودعا بإناء يربض الرهط(٣١)، فحلب فيه ثجًا، وسقى القوم حتى رووا، ثم شرب ﷺ آخرهم، ثم حلب

---

(٣٠) مرملين: نفد زادهم. ومسنتين: أصابهم الجدب لأنهم كانوا يقولون عمن أجدب: أصابته سنة. وذلك لاعتمادهم على الأمطار.

(٣١) يربض: يروي.

فيه مرة أخرى عللًا بعد نهل ثم غادره عندها، وذهبوا، فما لبث أن جاء أبو معبد زوجها يسوق أعنزًا عجافًا، يتساوكن هُزّلًا فلما رأى اللبن أبو معبد عجب وقال: ما هذا يا أم معبد؟ أنّى لك هذا والشاة عازب حيال، ولا حلوب في البيت؟! فقالت أم معبد: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك من شأنه كذا وكذا، فقال أبو معبد: صفيه يا أم معبد، فقالت:

رأيت رجلًا ظاهر الوضاءة، مُبلج الوجه، حسن الخَلْق، لم تعبه ثُجْلة، ولم تزر به صعلة(٣٢)، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، أحور، أكحل أزج، أقرن، شديد سواد الشعر، في عنقه سطع، وفي لحيته كثافة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نُظِمْنَ يتحدرن، حلو المنطق، فصل، لا نزر، ولا هذر، أجهر الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرًا، وأحسنهم قدرًا، له رفقاء يحفّون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا لأمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفند.

فقال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش، لو رأيته لاتبعته.

(٣٢) الصعلة: صِغر الرأس. ومنه يقال للنعام: صَعَل.

قصة
راعي غنم آخر
وهي غير قصة صاحب الصخرة

قال صاحب المواهب: واجتاز ﷺ في طريقه بعبد أسود، يرعى غنمًا، فكان من شأنه ما رويناه من طريق البيهقي بسنده عن قيس بن النعمان السكوني أحد وفد عبد القيس قال: لمَّا انطلق النبي ﷺ وأبو بكر مستخفين مر بعبد يرعى غنمًا فاستسقياه اللبن، فقال: ما عندي شاة تُحلب غير أن هاهنا عناقًا - الأنثى من ولد المعز قبل استكمال الحول - حملت عام أول، وما بقي لها لبن، فقال النبي ﷺ «ادع بها» فاعتقلها ﷺ، ومسح ضِرْعها ودعا حتى أنزلت، وجاء أبو بكر بمجن فحلب ﷺ فسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي، ثم حلب فشرب، فقال الراعي: بالله مَن أنت؟ فوالله ما رأيت مثلك! قال ﷺ: «أوتُراك تكتم عليَّ حتى أخبرك؟» قال: نعم. قال: «فإني محمد رسول الله» قال الراعي: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ؟! قال ﷺ: «إنهم ليقولون ذلك». قال الراعي: فأشهد أنك نبي، وأن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك، قال ﷺ: «إنك لن تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا».

قال الزرقاني: ثم هذا الحديث قطعًا غير قصة الراعي الذي أتى يريد ظل الصخرة التي نام تحتها رسول الله ﷺ؛ لأن صاحب

الصخـرة قال: إن في غنمه لبنًا، وحلب هـو لأبي بكر - رضي الله عنه -، وبرَّد أبو بكر اللبن حتى استيقظ المصطفى ﷺ كراهة أن يوقظه، ثم سقاه.

وأمـا هذا العبد، فذكـر أنه لا لبن معه، وإنما أتى اللبن معجزة، والنبـي ﷺ هـو الذي حلب وسـقاه بعـد أبي بكر، ثم شـرب هو آخرهم.

قال الزرقاني: وقصـة الراعي - أي الأول الذي حلب لأبي بكر كثبة والنبي ﷺ كان نائمًا - كانت قبل قصة سراقة، وقصة سراقة كانت بعد قصة أم معبد كما أفاده في فتح الباري.

قصة شبيهة بقصة أم معبد

ثم قال الزرقاني:

قال الحافظ مغلطاي بعد ذكره لقصة أم معبد: وفي الإكليل للحاكم أبي عبد الله قصة أخرى شبيهة بقصة أم معبد، قال الحاكم: فلا أدري أهي هي، أم غيرها، وقد رواها تلميذه البيهقي بسند حسَّنه ابن كثير عن أبي بكر - رضي الله عنه - قال: خرجت مع رسول الله ﷺ من مكة فانتهينا إلى حي من أحياء العرب، فنزلنا على بيت منه، لم يكن فيه إلا امرأة، وذلك عند المساء، فجاء ابن لها بأعنز يسوقها، فقالت له أمه: انطلق بهذه الشفرة والشاة لهذين الرجلين وقل لهما: اذبحاها وكلا منها وأطعمانا، فرد النبي ﷺ الشفرة وقال له: ائتني بقدح، فقال له: إنها عزبة أي لم يطرقها الفحل، قال ﷺ: «انطلق»، فانطلق فجاء بقدح فمسح النبي ﷺ ضرعها، ثم حلب ملء القدح، وأرسله لأم الغلام معه، فشربت حتى رُويت، ثم دعا ﷺ بأخرى ففعل بها كذلك، ثم سقى أبا بكر، ثم دعا بأخرى، ففعل بها كذلك وشرب ﷺ، فلبثنا ليلتين، ثم انطلقنا، فكانت - أي هذه المرأة - تسميه - أي النبي ﷺ، المبارك، وكثرت غنمها حتى جلبت جلبًا إلى المدينة، فمر أبو بكر عليها فعرفه ابنها، وقال لها: هذا الذي كان مع المبارك، فسألته عنه، فقال لها: هو نبي الله ﷺ، فأدخلها عليه فأطعمها وأعطاها. قال البيهقي في الدلائل: وهذه القصة قريبة من قصة

أم معبد ويشبه أن تكونا واحدة، قال الزرقاني: والذي يظهر أنها غيرها، كما أشار إليه مغلطاي، كيف وفي قصة أم معبد أن الشاة التي حلب منها إنما هي التي في كسر الخيمة وسقى الجميع منها ثم شرب، وأن الآتي بالأعنز إنما هو زوجها بعدما ذهبوا، وأيضًا فقد قال في هذه القصة: فلبثنا ليلتين، إذ لو لبثاهما - أي في قصة أم معبد - لأدركهما زوجها، ولا مانع من التعدد، وإلى هذا جنح في فتح الباري، فقال: أخرج البيهقي في الدلائل شبيهًا بأصل قصة أم معبد في لبن الشاة المهزولة دون ما فيها من صفته ﷺ، لكنه لم يسمِّها في هذه الرواية ولا نسبها فاحتمل التعدد.

قصة
بريدة بن الحُصَيب الأسلمي

قال الزرقاني: وأخرج البيهقي عن بريدة بن الحصيب قال: لما جعلت قريش مئة من الإبل لمن يرد النبي ﷺ حملني الطمع، فركبت في سبعين من بني سهم فلقيته، فقال: «مَن أنت؟» فقلت: بريدة، فالتفت النبي ﷺ إلى أبي بكر وقال: «بَرُدَ أمرُنا وصَلُح» ثم قال: «ممن أنت؟» قلت: من أسلم، قال: «سلِمْنا» ثم قال: «ممن؟» قلت: من بني سهم، قال: «خرج سهمك يا أبا بكر».

فقال بريدة للنبي ﷺ: مَن أنت؟ فقال ﷺ: «أنا محمد بن عبد الله رسول الله»، فقال بريدة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، فأسلم بريدة وأسلم مَن كان معه جميعًا، قال بريدة: الحمد لله الذي أسلم بنو سَهم طائعين غير مُكرهين، فلمّا أصبح قال بريدة: يا رسول الله، لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء، فحلَّ عمامته ثم شدها في رمح، ثم مشى بين يديه حتى دخلوا المدينة.

وكان ﷺ يحب الفأل الحسن، فما في قصة بريدة من قوله ﷺ: «سَلِمْنا» وقوله: «برد أمرنا وصلح» فهو من هذا القبيل الذي جرى فيه ﷺ على عادته الشريفة.

ومنه ما رواه أبو نعيم بسنده عن إياس بن مالك بن الأوس الأسلمي عن أبيه قال: لمّا هاجر رسول الله ﷺ وأبو بكر - رضي الله عنه - مروا بإبل لنا بالجحفة، فقال رسول الله ﷺ: لمن هذه

الإبـل؟ فقالـوا: لرجـل من أسـلم، فالتفـت إلى أبي بكـر فقال: «سـلمتَ إن شاء الله» فقال: «ما اسـمك؟» قال: مسعود، فالتفت إلى أبي بكر فقال: «سعِدْتَ إن شاء الله» قال: فأتاه أبي فحمله على جمل يُقال له: ابن الرداء.

وفي ثنايا قصة الهجرة ما يدل على حفاوة الإخاء والمحبة التي يضفيها رسـول الله ﷺ على صديقه وصاحبه أبي بكر - رضي الله عنه -، ليخفف عنه ما يجده من التوجس على رسول الله ﷺ وشدة حرصه على سـلامته، وذلك بما تبعثـه كلمات التفاؤل في النفس مـن راحة ورجاء فـي رحمة الله ورعايتـه، ويزيد فـي أثرها التفات رسـول الله ﷺ إلـى أبي بكـر - رضي الله عنـه - وتوجيه الخطاب إليه بعاطفة الإشـفاق والودادة، فكأنه يقول له: أبشر ولا تبتئس، وانفض عن نفسـك غبار الأحزان، فقد كتبت لك في ألواح الغيب السـلامة والسـعادة، ويتلقى الصديق - رضي الله عنـه - هذا الود العطوف بقلب مَلأهُ اليقين والحب والإخلاص.

كيف استُقبل رسول الله ﷺ بالمدَينة المنورة

الأنصار في ذروة المكارم:

كان الأنصار خزرجهم وأوسهم، رجالهم ونساؤهم، شيوخهم وشبابهم، فتيانهم وفتياتهم، أصدق الناس وعدًا، وأوفاهم عهدًا، وأحسنهم على رسول الله ﷺ ردًا، وأحظاهم عنده قبولًا، وأسعدهم له بيعة، وأرعاهم له ودًا، وأطهرهم قلوبًا، وأصفاهم فطرة، وأعلاهم في المكرمات كعبًا، وأوصلهم في الخير آصرة وحبًا، وأسرعهم لدعوة الحق استجابة، وأقبلهم للهدى، وأعرفهم للخير، وأبصرهم لنور الإيمان، وأنبلهم في عهودهم خلقًا، وأعظمهم في العطاء إيثارًا، وأوثقهم إيمانًا، وأخلصهم سريرة، وأصفاهم علانية، وأقواهم في الذود عن الحق عزيمة، وأعلاهم في الكرم سماحة، وأسمحهم بالعفو تكرمًا، وأرفعهم في ذرى الشمائل مروءة، وأشجعهم في الحق بطولة، وأجرأهم على أعداء الخير صولة، وأثبتهم في حومة الوغى قدمًا، وأسرعهم لداعي الجهاد في سبيل الله استجابة، وأرسخهم في الدعوة إلى الله وتوحيده وهديه يقينًا، وأبعدهم عن الغرور بزخارف الدنيا ورغائبها، وأخلصهم لله تعبدًا، وأبلغهم في نصر دين الله لسانًا، وأفصحهم قولًا، وأروعهم كلمًا، وأحكمهم عند المشورة اجتهادًا ورأيًا، وأحبهم لرسول الله ﷺ، وأقربهم إلى قلبه مودة، وأتبعهم لنهجه، وأعرفهم بمواطن حكمته.

قدّمــوا أرواحهــم وأموالهم وفلــذات أكبادهم فداء لرســول الله ﷺ ولأصحابــه الذين هاجروا إليهم، وعانقوا الســيوف دفاعًا عن الدعوة إلى الله وتبليغ رسالاته إلى الناس، وأحبُّوا الموت استشهادًا في ســبيل إعــلاء كلمــة الله، كلمة الحــق والتوحيد، وقــد أحبهم رسول الله ﷺ، وأثنى عليهم، ونوّه بفضلهم على الناس، وأنزلهم مــن نفســه منزلة الحِبِّ من الحبيب، فكانــوا منه ﷺ كما قال في تصوير قربهم من نفســه: «الأنصار شــعار والناس دِثار»(٣٣) وكما قال ﷺ: «الأنصار كَرشي وعَيْبتي»(٣٤) وكان معهم كما قال: «أنا سِلْم لمن سالمهم وحرب لمن حاربهم».

لهــذا كان حبهــم إيمانًا، وكان بغضهــم نفاقًــا وكفرانًا، روى البخاري رحمه الله تعالى من حديث عدي بن ثابت قال:

ســمعت البراء بن عازب يقول: ســمعت رسول الله ﷺ يقول: «الأنصــار لا يحبهم إلا مؤمــن، ولا يبغضهم إلا منافق؛ فمن أحبهم أحبــه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله» وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار».

ولو لم يكن للأنصار من شــمائل الفضائل، وفضائل الشــمائل التــي ســبقوا فيها وأربــوا على الغاية، فــلا يلحقهم فيهــا أحد في الســابقين واللاحقيــن من المؤمنين مــا أنزل الله فيهــم قرآنًا يُتلى

(٣٣) الشعار الثوب الذي يلي الجسد. والدثار الثوب يكون فوق ذلك الثوب.
(٣٤) أي جماعتي وصحابتي.

ويتعبّد بـه إلى يوم القيامة، ثناء عليهـم وتنويهًا بفضلهم، وذلك قـول الله تعالـى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر : ٩) لكفاهم في سجل المفاخر، ومناقب المآثر، ومآثر المكارم.

خصائص الأنصار:

وفـي تعبير القـرآن الحكيم عن مكانة الأنصـار من خِصِّيصتي الإيـواء وتمكن الإيمان من أنفسـهم، وتمكنهم مـن ذروته بقوله تعالـى: ﴿ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ ﴾ أروعُ صـورة مـن صـور البيـان الإعجـازي، هـذا التصوير الذي جعـل من المدينـة المنورة دارهم المعهودة التي لا يشـاركهم في الاسـتقرار بها وفرض ما يشـاءون عليهـا وعلى سـاكنيها أحـد، مـع أن مقاليدها لم تكـن إلى عهد قريـب جـدًا ـ إلـى عهـد تمـام بيعتهـم لرسـول الله ﷺ وهجرة أصحابـه إليهم، ثـم هجرته ﷺ ــ بأيديهم، وإنمـا كانت بأيدي اليهود الذين سـكنوها قبلهم، واستمكنوا من مرافقها، واستقروا بها فـي حياتهم الاقتصاديـة والاجتماعيـة؛ لأن الأنصار منذ تلك البَيْعة العظمى أصبحوا سـادة الموقف في مدينتهم بما جاءوها به من سـلطان الدعوة التـي عقدوا هذه البيعـة لمناصرتها بأرواحهم وأموالهم وأولادهم وبكل ما يملكون في حياتهم.

ولا شـك أن هذا الوضع الجديد الـذي عبَّر عنه القرآن الحكيم تعبيـره الموجـز المعجز قد أحدث في داخل نفـوس الأنصار ثورة اجتماعيـة عارمة، ترفض كل تبعية، وأحـدث في نفس اليهود ذلّة خبيثـة ماكـرة تعمل في سـتار من الظـلام، أدخلوا بهـا النفاق في صدور الذين بقي لهم في قلوبهم مكانة من إكبار الماضي القريب، وهم قلّة عجزت عن مواقف العلانية أمام هذا السلطان القاهر الذي أكسـبته البَيْعة الكبرى للأنصار، فكانوا سـادة مدينتهم، وكانت مدينتهم الدار التي تبوَّءوها لحياتهم الجديدة في ظل الإسلام.

والـذي جعـل من الإيمان ـ وهـو حقيقة معنويـة أبعد ما تكون الحقائـق عن المـادة وخصائصها ـ مسـتقرًا حسـيًا ومتوطنًا لهم لشـموله لهم، وإحاطته بهم من سـائر أقطارهم ممـا يفيد تداخله تداخـلًا مزجيًـا في إحساسـاتهم ومشـاعرهم، وإفعامـه أفئدتهم وقلوبهـم وعقولهم وأرواحهم، وسـائر مناحـي تفكيرهم بأنواره وشـرائعه وأحكامه وآدابه، آمرًا ناهيًا مطاعًا مستجابًا، فكأنه بهذا التصويـر القرآنـي الوجيز المعجز مكان حسـي تبـوءوه، وملئوا أحيـازه، فلـم يتركـوا فيـه خصاصة لغيرهـم ولا فرجة لسـواهم، وكان لهم سـياجًا يحميهم ويجمع أمرهم، ويشدّ أعضادهم، فهو كالقلعة الحصينة لهم، لا يبلغ أحد أن ينالهم بسـوء لقوة شـدته، وتماسك عناصره عقيدة وتعبدًا ونظامًا للحياة.

وفـي قولـه تعالـى: ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أبـدع تصويـر لوشـائج القرب التي أحدثها هذا الإيمان المتبـوأ لهم فيما بينهم

وبيـن إخوانهـم المهاجريـن الذين وفـدوا إليهـم بإيمانهم الذي أقاموا مناره في أفق المحن والبلايا، تُصب عليهم من طغاة الشـرك والوثنيـة صبًـا، وليس لهم سَـبَد ولا لبـد؛ لأنهم تركـوا أموالهم وديارهم وأولادهم وعشـائرهم في سـبيل الحفـاظ على عقيدتهم ودينهـم الذي اصطفاه الله لهم، وارتضـاه للدنيا كلها دينًا لا يُقبل من أحد سواه.

لأن الحب قمة صُوَر القـرب والتماذج الروحي الذي ينتهي في صفائه وخلوصه من شـوائب الأغراض والمقاصـد (الأنوية) التي تعمـل لتحقيق الرغائب الشـخصية إلى وحـدة الرغائب والآمال، ووحدة الإحساس بالآلام.

فليسـت مواسـاة الأنصـار التـي مدحهـم الله بهـا لإخوانهـم المهاجرين مواسـاة تكرّم لسدِّ خُلّة أو دفع حاجة، ولكنها مواساة حـب مزج بينهم فجعل من مجتمعهم وحدة إيمانية لا تعرف لغير هذا الإيمان سـلطانًا، والحـبُ أقصى ما تبلغ العواطف من إخلاص يذيـب (الأنانيـة) وإيثـار النفس بـكل محبوب، ويحقـق وحدة شعورية لا يبقى فيها مكان (لأنا) و(أنت) و(هو).

وفـي قولـه تعالـى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أصدق تعبير عن مدى ما تستطيع الروابط الإيمانية أن تصنعـه فـي داخـل النفـس الإنسـانية مـن آثـار تبلـغ ذروة الفضائل، وتتجاوز قمم المكارم إلى آفاق الحق المُقاسـم، وهي محسـوبة في سـجل الإخاء، ولكنه إخاء من لون جديد ـ أحدثه

الإسلام بتربيته الخاصة لخواص معتنقيه دينًا، وهبوا له أنفسهم وحياتهم ـ لم تعرفه البشرية في تاريخها العريض المديد لغير هؤلاء الأعلَين الذين كانوا طليعة الإيمان بهذا الدين القويم من المهاجرين والأنصار؛ لأنه إخاء لا يعتمد على الإيثار المادي فقط، ولكنه إيثار حب يعتمد على وحدة الامتزاج النفسي الذي لا يفرِّق بين المادة والروح، فالإيثار بالروح كالإيثار بالمادة، فهو حب إيثار تصوره الوقائع التي يقف منها واقع الناس، كل الناس في حياتهم مذهولًا مأخوذًا لأنه يرى ما لا يتصور أن يكون إلا في خيالات (المُتَرَوْحِنين)[35]، والتاريخ الصادق شاهد عدل على تلك الوقائع.

وقائع التاريخ شواهد صدق على ما كان للأنصار من شمائل المكارم:

ففي آثار السيرة النبوية أن النبي ﷺ لما غنم أموال بني النضير قسمها على المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئًا إلا ثلاثة نفر منهم كانوا في حاجة شديدة، وقد قصد ﷺ ـ فيما يظهر لنا ـ بصنيعه ذلك أن يريش المهاجرين[36]، ليقفوا في حياتهم الجديدة دون أن يثقلوا على إخوانهم الأنصار فيما تحملوه من مشاركتهم حياتهم ومواساتهم لهم، كما قصد النبي ﷺ أن يطيِّب نفوس

(٣٥) المفرد منها (مُتَرَوْحن) وهو كثير الانشغال بالروحانيات والخيالات.
(٣٦) الريش المال والخصب والحالة الجميلة وراشه جعل له مالا.

الأنصار بهذا العطاء الذي خص به المهاجرين، فقال لهم: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من هذه الغنيمة».

فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة، ولا نشاركهم فيها.

وقد عرف المهاجرون لإخوانهم الأنصار فضلهم ورِفْدَهم ومواساتهم، وحبهم وإيثارهم على أنفسهم، فأعلنوه شكرًا لهم، روى الإمام أحمد في مسنده قال: قال أنس: قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلًا من كثير، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال رسول الله ﷺ: «لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم».

ومناقب الأنصار ومكارمهم لا تُحصى، ولكنا ذكرنا ونذكر منها نماذج لتحتذى، ومُثلًا ليقتدى بها، ولن يبلغ أحد مداها، وحسبهم منقبة فاقوا بها جميع الناس من الأولين والآخرين قول رسول الله ﷺ في الثناء عليهم وحبهم، وقربهم منه ﷺ، وتنويهًا بشأنهم: «لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشِعْبًا، وسلك الأنصار واديًا وشِعْبًا لسلكتُ وادي الأنصار وشِعْبهم» فهم الذين آووا ونصروا، آووا الرسالة والرسول، ونصروا الحق وجنده، وآووا إخوانهم المهاجرين الذين تركوا

أموالهــم وأولادهــم فــداء لعقيدتهــم ودينهم، وهــم الذين نصروا الدعــوة إلــى الله بأرواحهم وســيوفهم، وهم الذيــن ذخرهم الله في ســجل غيبــه ليخرجهــم للناس خير أمــة وليخرج بهــم الحياة من الظلمات إلى النور، أظهرهم الله حينما أتت ساعة إشراق شمسهم لتنيــر الطريق أمام ركب الحيــاة بمن فيها وما فيها، وليقيموا لهم معالــم الهدى ومنائــر الحق في تبليغ الرســالة الخاتمــة الخالدة، رســالة الإسلام، دين جميع الأنبياء والمرســلين التي اختار الله لها محمدًا ﷺ ليكــون حامل أمانتها ومبلغ هدايتها وناشــر أنوارها، وليبعثــوا فــي كيان هــذه الرســالة روح التوثب لتمضــي قدمًا إلى القلوب والعقول والأرواح بعد أن كادت تتجمد أمام فجور الكفر، وعتو العناد والاستكبار، ومواريث الجهالة وسفه الاعتقاد وضلال الوثنية وظلام الشــرك البليد في مكة، ممثلــة في ملئها من الطغاة المتجبرين، المتعززين بزخارف الدنيا، الجاحدين لآيات الله حقدًا وحسدًا من عند أنفسهم.

لقد ســلك رسول الله ﷺ معهم كل مســلك في تبليغهم رسالة ربه، واستمالتهم إلى قبول ما جاءهم به من الهدى والخير، ومشى إليهــم فــي كل طريق يرجــو فيه أن يســتجيبوا لدعوتــه، ويؤمنوا بربهم إلهًا واحدًا، لم يترك شــريفًا في قومه إلا اتصل به ودعاه إلى الله، وطلب منه نصره، وكان يأتي المحافل في المواسم والأسواق يعرض نفســه على القبائل والبيوتات ليُئْــووه وينصروه، فما كان

يجد منهم إلا أقبح الرد، وأسوأه قولًا وفعلًا، وبلغ من حرصه على إيمانهم وهدايتهم إلى الحق أن قال له الله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾

(الكهف: ٦)

وكان ﷺ يقابل إعراضهم عن قبول دعوته والإيمان برسالته بالحزن الكظيم، والاحتمال الصبور، والصبر الجميل، ويتضرع إلى الله طالبًا هدايتهم، ويقول: «لو شئتَ لم يكونوا كذلك» ويقول في إثر غزوة أحد، وقد آذوه وأدموا وجهه الشريف وكسروا رباعيته: «اللّهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون».

ولم يكن ﷺ يعرف اليأس والقنوط قط، بل كان قلبه مفعمًا بالرجاء والأمل، ولم يكن يقعده كل ما كان يصبُّه عليه وعلى أصحابه الطغاة من أحلاس الكفر وفجرة العتو والعناد في مكة من صنوف البلاء، وسفاهة السخرية والاستهزاء من المضي قُدُمًا في تبليغ رسالات ربه بعزيمة جمعت عزائم أولي العزم من الرسل، حتى أذن الله بالفرج وفتحت أبواب الغيب، وانفلقت آفاق ظلام الأزمات وحوالك ظلمات الشدائد عن أولئك الغر الميامين الأعلين في سماوات المجد من أبناء قَيْلة أوسهم وخزرجهم، وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا في بيعاتهم المتوالية، بيعة إثر بيعة، وكانت أول ما كانت بيعة الستة الأوسيين، ثم وليتها بيعة الاثني عشر، وكانت مزيجًا من الأوس والخزرج، وعادوا إلى بلدهم وقومهم،

وكانت الحروب قد أكلت رءوسهم وأبطالهم وزعماءهم، وبقيت تستطعم السيوف بقيتها حتى سمعوا صوت الإسلام في همسات تسابيح من أسلم منهم، فارتعشت أيديهم، وسقطت السيوف من أكفهم، وتسللت الإحن والبغضة من قلوبهم إلى منحدرات الجاهلية الفانية، وتسمّعوا إلى هؤلاء الذين عادوا إليهم من الموسم بوجوه غير الوجوه التي فارقوهم بها حينما ذهبوا إلى الموسم، وهم يتحدّثون عن رسول الله ﷺ وما سمعوا منه من آيات الكتاب المنزّل عليه، وما دعاهم إليه من توحيد الله وإخلاص العبودية له، وخلع الأنداد، وعقد أواصر الإخاء والمحبة وطرح موروث الجاهلية ومفاسدها.

وقد كان لدى اليثربيين ذَرْوٌ من العلم والمعرفة بمحمد ﷺ وبعثته مما تناقلوه عن اليهود في كتبهم، وما كانوا يتدارسونه في مدارسهم، ويتلقونه عن أحبارهم، ولكنه كان علمًا باهتًا، لا أثر فيه لليقين، وهاهم أولاء إخوتهم وأبناؤهم قد جاءوهم بالخبر اليقين والنبأ العظيم، وقد كانوا روّادًا لهم، والرائد لا يكذب أهله.

وقد طلب هؤلاء الروّاد من رسول الله ﷺ من يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، ويدعو إلى الله، فأرسل معهم ﷺ أول داعية للإسلام، القارئ المقرئ العليم بمواطن الحكمة مصعب بن عمير - رضي الله عنه -، وهاهو ذا بين أظهرهم في بلدهم، يراه قومهم ويستمعون إلى أحاديثه، وما يتلوه عليهم من آيات القرآن الكريم.

ورنّ صوته بالدعوة في آذان الأكابر ممن نجا من سيوف

الجاهليــة، فذهب إليه رءوســهم وذوو خطرهــم منكرين مهددين متوعدين، فكان يســتقبلهم بما علمه رسول الله ﷺ من السماحة والمصابــرة، فتليــن قلوبهــم بعض الشــيء، وتذهــب عنهم حدّة الحماســة الجاهليــة، ويســمعون منــه، ويثوبــون إلــى رشــدهم، ويرجعون إلى بيوتهم وأهليهم فيؤمنوا لإيمانهم، ويفشــو الإسلام والحديث عن رســول الله ﷺ في دور الأنصــار حتى لم تبق دار من دورهم إلا وفيها رهط من المســلمين، يظهرون الإسلام، ويعلنون شرائعه وأحكامه، وقلوبهم عامرة بالإيمان به.

واشــتد التنافــس بيــن الأوس والخــزرج، كلهم يريــد أن يحوز قصب الســبق في حمل راية الدعوة إلى الأمام، وكلهم يســارع إلى أن يكــون صاحب الحظوة عند رســول الله ﷺ بما يقدمه من عمل صالح يدفع بالدعوة إلى الأمام، وكلهم يعمل جاهدًا على أن يكون بطل الجهاد في ســبيل نشرها، وكلهم يودّ أن يلقى رسول الله ﷺ لينظر إليه ويسمع منه.

ونظــروا كلهم إلى فــراغ القيادة تتحدر من آفاقــه كواكب الغر البهاليــل مــن نجوم الدعاة إلــى الله، فلا يملؤهــا نورهم ولا يحيط بأقطارها هديرهم؛ لأن شمس الرسالة لا تزال وراء الأفق لم تشرق عليهم بأشعتها المضيئة للحياة.

ورســول الله ﷺ لا يــزال فــي مكــة لمَّــا يبرحها، وهــم ظمأى لنميــر حديثه، مفتقرون إلى وجوده بينهم ليأخذ بيده زمام الدعوة فــي طورها الجديد، طــور الحركة والتوثب، ويملــي عليهم آيات

الجهاد في سبيلها، ليعلنوها على مسامع الدنيا كلمة لا تُرد ما قامت سيوفهم بأيديهم، وما كانت فيهم عين تطرف، ونَفَس بين جوانحهم يتردد.

فاجتمع الأنصار جميعًا أوسهم وخزرجهم، مَن كان منهم قد لقي النبي ﷺ وبايعه من قبل في إحدى البيعتين السابقتين أو فيهما، أو مَن أسلم على أيدي الدعاة إلى الله، ولم يكن سبق له أن لقي رسول الله ﷺ وبايعه.

وأتمروا فيما بينهم وقالوا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف على مجتمعات الناس، ويغشى محافل العرب في المواسم، ويُطرد في جبال مكة، ويُرَدّ ويخاف؟ وعزموا الأمر، وصدقوا الله في عزيمتهم فرحل إليه منهم سبعون رجلًا وامرأتان، وهؤلاء هم أهل البيعة الكبرى التي سميناها (فتح الفتوح) حتى قدموا عليه ﷺ الموسم، وواعدوه شِعْب العقبة، واجتمعوا عند الشِعْب متسلِّلين تسلُّل القطا من رجل ورجلين، حتى توافوا وتمّ جمعهم، وقالوا: يا رسول الله، علام نبايعك؟ قال ﷺ: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة» فقاموا إليه يبايعونه، فأخذ أسعد بن زرارة بيده، وقال: رويدًا يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل

إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة وقتل خياركم، وتعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فبيِّنوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله، فقال القوم: أمِطْ يا أسعد يدك، فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسُلبها، فقاموا إلى النبي ﷺ فبايعوه، وأخذ عليهم، وشرط لله ولرسوله، وأعطاهم بذلك الجنة.

أولئك أنصار الله وأنصار رسوله، عاهدوا الله ورسوله فصدقوا في عهدهم أكمل ما يكون الصدق في عهد، مضوا على ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ قُدُمًا لم يتلجلجوا، ولا ترددوا، ولا كعُّوا عن الجهاد في سبيل الوفاء ببيعتهم، ولا جبنوا عن لقاء عدو لله ولرسوله، ولا تقاعسوا عن مطلب تقاضاهم إياه الوفاء بالعهد، فهم قد بايعوا رسول الله ﷺ على حرب الأبيض والأسود، دفاعًا عنه وعن أصحابه وعن رسالته، إذا حل بينهم في بلدهم، وهاجر إليهم، فكانوا أوفى من بايع، وأصدق من عاهد، فكانت بيعتهم فتحًا للإسلام، مهّدت الطريق أمام كتائب الجهاد حماية للدعوة وعملاً على نشرها، زلزلت أقدام الطغاة من المشركين في مكة، وملأت قلوبهم رعبًا، وبخعت تعزّزهم الوثني الجهول، ونكأت غرورهم الأجوف، وزعزعت عنادهم، وغمزت قناتهم فقصفت كعوبها.

نصـروا الله بنصـر دينـه، ونصـروا رسـول الله ﷺ بنصـر دعوته، ونصروا الإسـلام بنشر رسـالته، ونصروا المستضعفين مـن المؤمنين فآوَوْهم إلـى كنف إخائهم وحبِّهـم وإيثارهم على أنفسهم، فبدّلوا ضعفهم قوة، وخوفهم أمنًا، وذلهم عزًا، وفقرهم غنى، وجعلوا منهم للجهاد عدة، وللبطولة مددًا، وللحق جندًا، وللفتح رِفْدًا وسندًا.

وإذا كان السابقون الأولون من المهاجرين قد خصهم الله تعالى فجعلهم طليعة الإسـلام، فكانوا أول من اسـتجاب لله ولرسـوله، فانفـردوا بالأسـبقية إلـى الإيمـان بالدعـوة إلـى الله، وكتب هذا الفضـل الـذي كان خصيصتهم التـي لا يلحقون فيهـا، ولا يوازن بهـا فضل أحد مـن الأوّلين والآخرين، فإن الأنصـار هم الذين آوَوْا ونصروا، فكانوا كتيبة الإسـلام التي حملت لواء النصر خفاقًا في الآفـاق، وكانوا أول جند للإسـلام وقفوا في وجـه الفجور الوثني فكسـروا شـوكته ممثلاً في ملأ العتـو المتجبر من طغـاة قريش، وأذلّوا غـرور المسـتكبرين، فأعزّ الله بهم دينـه ونصر بعزائمهم رسوله ﷺ، فالمهاجرون خُصّوا بالسبق إلى الإسلام، وكانت لهم الهجـرة، والأنصار خُصُّوا بالإيـواء والإيثار والحب، قال أبو حيان في (البحر) في تفسـير قوله تعالـى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ (الأنفـال: ٧٢) قسـم الله المؤمنيـن

إلى المهاجرين والأنصار، والذين لم يهاجروا، فبدأ بالمهاجرين؛ لأنهم أصل الإسلام وأول من استجاب لله، وثنّى بالأنصار؛ لأنهم ساوَوْهم في الإيمان والجهاد بالنفس والمال، لكنه عادل الهجرة بالإيواء والنصر، فانفرد المهاجرون بالسبق فكانوا اللبنة الأولى في بناء صرح الإسلام.

عاد السبعون إلى بلدهم بعد أن أتم الله تعالى عليهم نعمته في بيعتهم الكبرى التي كانت فيصلاً بين الحق والباطل وهم يتطلعون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه بمكة وهم في غمرات المحن، انتظارًا لقدومهم عليهم، ليجعلوا من مدينتهم مأرزًا للإيمان ومعقلاً لكتائب الإسلام، وهاجر إليهم إخوانهم الذين أُذوا فصبروا تكرمًا واحتملوا من صنوف البلاء ما كان فوق طاقة البشر في سبيل استمساكهم بعقيدتهم، والحفاظ على دينهم، وتركوا وراء ظهورهم أموالهم وأولادهم ومساكنهم، وعشائرهم، ومآثرهم التاريخية والاجتماعية، وذكرياتهم ومآنس شبابهم وملاعب صباهم، حيث لم يجدوا في مكة للحق والخير والهدى مكانًا.

فأنزلهم إخوانهم الأنصار في مساكنهم ومجتمعاتهم أكرم منزل، وكانوا يتنافسون أشد التنافس في إنزالهم وإكرامهم، حتى بلغ الأمر أنه ما كان ينزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة، وقاسموهم أموالهم وسائر مناحي حياتهم، بل آثروهم على

أنفســهم وأهليهم وأفلاذ أكبادهم، ومزجوهم بحياتهم، وأحلوهم من قلوبهم محل الحِبِّ الأثير، وأنزلوهم من أفئدتهم منزل الحميم من الحميم.

كانــت هذه المواســاة النبيلة آية من آيات الحــب والمودة التي أنســت المهاجرين مرارة مفارقة الأوطان والأحبة وأنســتهم قسوة الفقر والحاجة، لأن إخوانهم الأنصار واسوهم مواساة امتزاج بهم، فخلطوهم بأنفسهم حتى كانوا منهم بالمكانة التي لا ترام.

واســتتمت هجرة أصحــاب النبي ﷺ مــن مكة إلــى المدينة، واســتقر المهاجــرون بيــن إخوانهــم الأنصــار آمنيــن مطمئنين، ينتظــرون جميعًا مقدم النبي ﷺ ليطمئنوا عليه كما اطمأنوا على أنفسهم في كنف إخوانهم الأنصار، وليسمعوا منه آيات الله تتنزل عليــه فيتلوها عليهم تفقيهًــا في الدين وتعليمًا لآدابه وشــرائعه، وليروا ما كانوا يرون ويشــاهدوا من معالم الوحي وأنوار التنزيل، وليأخــذ بيــده ﷺ زمام الدعوة في مرحلتهــا الجديدة، وقد قويت شوكتها، واشتدت قناتها، لتمضي في قوتها قُدُمًا لا يعوقها عائق، ولا يثنيها عن طريقها أحد من الخلق.

وأقام رســول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يــؤذن له في الهجرة، ولم يتخلّــف بمكة مــن الصحابة إلا من كان مقهورًا محبوسًــا، أو كان ضعيفًــا مفتونًــا في دينه؛ ســوى أبي بكــر الصديق وعلــي بن أبي طالب رضــي الله عنهما، وكان أبو بكر دائم الأهبة للهجرة، وكان

كثيرًا ما يستأذن رسول الله ﷺ في اللحاق بإخوانه المهاجرين، فيستمهله النبي ﷺ، ويقول له: «على رِسْلك فلعل الله يجعل لك صاحبًا»، فيطمع أبو بكر رضي الله عنه أن يكون ذلك الصاحب هو رسول الله ﷺ.

وذكر ابن القيم في (الهدي النبوي) أن الحاكم ذكر في صحيحه أن النبي ﷺ سأل جبريل عليه السلام، فقال له: «من يهاجر معي؟» فقال جبريل: أبو بكر الصدِّيق، وظاهر أن مثل هذا لا يكون إلا عن وحي متلقى من الله سبحانه وتعالى، وفيه منقبة عظيمة للصديق حيث خصه الله تعالى بهذا الفضل العظيم الذي لا يداني.

أما علي رضي الله عنه فقد استبقاه النبي ﷺ بمكة حتى يرد الودائع التي كانت عنده ﷺ لأصحابها. قال ابن إسحاق: أما علي رضي الله عنه فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلَّف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته ﷺ.

وقد كان شوق الأنصار مع إخوانهم المهاجرين إلى مقدم رسول الله ﷺ عليهم بالمدينة يتعاظم ويتزايد حتى بلغ منهم مبلغ اللهفة، فإنهم رضوان الله عليهم لم يكادوا يرون مجتمعهم المسلم قد اكتمل، ورأى الأنصار إخوانهم من المهاجرين مستقرين في

منازلهــم، مطمئنين في جميع شــئونهم حتى بدءوا يتســاءلون في لهفة عارمة وشوق متعاظم مستشرفين الآفاق: أين رسول الله ﷺ؟ ومتــى يقدم علينا ركبه الميمون؟ ومتى تشــرق في آفاقنا شمســه لتضيء لنا الحياة؟ ومتى نستظل بظله الوارف؟ ومتى يتم لمدينتنا شــرف إيوائه بيــن أحضانها مكرّمًا معظّمًا مطاعًــا، فيقال لهم هو علــى الأثر، يقدم في حفظ الله ورعايته، كأنكم به وهو ﷺ بينكم تحفــون به حبًا وطاعة، وكأنكم بوجوده بينكم تمشــون معه فوق أديم السماء وتصافحون نجوم الجوزاء.

صــدق الحــب والوفــاء فــي مظاهــر حفــاوة الاستقبال:

وظل الأنصار في شوقهم المتعاظم ولهفتهم العارمة يستشرفون الآفــاق، يتوكفون مقدمه ﷺ(٣٧)، ويتطلعون إلى مطلعه في أفقهم حتى بلغهم أن ركبه المبارك قد تحرك إليهم، قال ابن القيم: وبلغ الأنصــار مخرج رســول الله ﷺ من مكة وقصــده المدينة، وكانوا يخرجــون كل يوم إلى الحرّة ينتظرونه أول النهار، فإذا اشــتد حر الشــمس رجعوا علــى عادتهم إلى منازلهم، فلمــا كان يوم الاثنين ثاني عشــر من ربيع الأول، على رأس ثلاث عشــرة ســنة من النبوة

(٣٧) توكّف كذا توقعه وتطلع إليه.

خرجوا على عادتهم، فلما حمي حر الشمس رجعوا وصعد رجل من اليهود على أطم من آطام المدينة لبعض شأنه، فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين، يزول بهم السراب، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قَيْلة، هذا صاحبكم قد جاء، هذا جدّكم الذي تنتظرونه، فبادر الأنصار إلى السلاح ليلقوا رسول الله ﷺ، وسمعت الرجة والتكبير في بني عمرو بن عوف، وكبر المسلمون فرحًا بقدومه ﷺ، وخرجوا للقائه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة، وأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحي ينزل عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التحريم: ٤) فسار ﷺ حتى نزل بقُباء في بني عمرو بن عوف، فنزل على كُلثوم بن الهدم، وقيل على سعد بن خيثمة، والأول أثبت، فأقام في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة، وأسس مسجد قباء وهو أول مسجد أسس بعد النبوة.

توضيح وتعليق

هذا الكلام الذي ذكره ابن القيم رحمه الله أصله عند ابن إسحاق في سيرته، وقد اختصره ابن القيم، وحقّق بعض تواريخه وأحداثه ووقائعه وأيامه.

بَيْدَ أن في بعض مواضع منه ما يحتاج إلى توضيح وتعليق، يكشف عن بعض ما عسى أن يكون قد ندّ على بعض الناظرين ممن لم يتعمق في دراسة أحداث السيرة النبوية.

فمن ذلك قوله: وكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة، وللمدينة حرار تحيط بجوانبها، والحرة أرض ذات حجارة سود حالكة السواد، وأعظم هذه الحرار وأشهرها الحرة التي كانت فيها واقعة يزيد بن معاوية وتسمّى ـ كما في طبقات ابن سعد حرة القصبة ـ وكانت هذه الواقعة من أسوأ وأشد ما مر في التاريخ قديمًا وحديثًا على المدينة وأهلها، فقد أبيحت فيها الحرمات، وانتهكت الستور، ونهبت الأموال وشاع الرعب والفزع.

ومن ذلك قول ابن القيم في تحقيقه: "فلما كان يوم الاثنين ثاني عشر من ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة خرجوا ـ أي المهاجرين والأنصار ـ على عادتهم"، ففي هذا القول تحقيق تاريخ اليوم الذي وصل فيه رسول الله ﷺ إلى علو المدينة

بقبـاء، وهي منازل بني عمـرو بن عوف، وهم أول قوم نزل عليهم في ديارهم، وفي هذا التحقيق تعيين اليوم باسمه من أيام الأسبوع، وهو يوم الاثنين، وفيه تعيين شـهره، وهو ربيع الأول، وفيه تعيين سنته من زمن النبوة.

وهـذا التحقيـق يرد ما جاء عن ابن شـهاب الزهـري من طريق تلميـذه موسـى بن عقبة أحد علمـاء المغازي والسـير، من قوله: وكان قدومه ﷺ لهلال ربيع الأول أي أول يوم منه.

ويرد قول ابن إسـحاق، وهو شيخ أرباب المغازي والسير، من روايـة جرير بن حازم: قدمهـا ـ أي المدينـة ﷺ لليلتين خلتا من ربيع الأول.

ويرد قول ابن الكلبي: ودخل ﷺ المدينة يوم الجمعة.

ويـرد قول مغلطاي: قدمها ـــ أي المدينة ﷺ لثمان خلون من ربيع الأول.

وعمـدة تحقيـق ابن القيم أن قوله: فلمـا كان يوم الاثنين ثاني عشـر مـن ربيـع الأول.. إلخ صحـة الروايـة، وأنها قـول جمهور العلمـاء ومـن ذلك قولـه: فرأى ـــ أي اليهودي ـ رسـول الله ﷺ وأصحابه مبيِّضين، أي لابسين ثيابًا بيضًا، وهي ثياب أهداها لهم الزبيـر بن العوام وطلحة بن عبيد الله، وقد التقيا بهم وهما قافلان

من الشام في ركب من المسلمين كانوا تجارًا .

قال الزرقاني في شرح المواهب ، ومما وقع لهم في الطريق أنه ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجّارًا قافلين من الشام فكسا الزبير رسول الله ﷺ ثيابًا بيضًا ، رواه البخاري عن عروة مرسلاً ، ووصله الحاكم عن عروة عن أبيه الزبير ، وكذلك لقيهما طلحة بن عبيد الله وكساهما ، رواه ابن أبي شيبة ، وغيره .

والظاهر من سياق الزرقاني أن الزبير رضي الله عنه قدّم هديته إلى رسول الله ﷺ أخذًا بأدب التعظيم ، فقسمها رسول الله ﷺ بينه وبين مرافقيه في رحلته المباركة جريًا على عادته الكريمة في عدم استئثاره بشيء عن أصحابه ، وقد لبس كل واحد ثوبه من هذا البياض ، فكانوا كلهم مبيضين عندما رآهم اليهودي قادمين يزول بهم السراب ، وبهذا يتمشى قوله : مبيضين بصيغة الجمع مع قوله : فكسا الزبير النبي ﷺ ثيابًا بيضًا ، وأن طلحة الفيّاض أهدى إلى رسول الله ﷺ وإلى صاحبه أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنهما أخذًا بشرعة المكارم ، ويدل لذلك قول الزرقاني : وكذا لقيهما طلحة وكساهما ، ويحتمل أن لُقيا طلحة كانت مع النبي ﷺ وصدِّيقه ، وأن رفيقيهما كانا قد تخلّفا عنهما في بعض الطريق ، كما ورد أنهما قد تأخر عنهما بعض ظهرهما ، وهذا يعلل ما جاء من أنهما دخلا مشارف المدينة والنبي ﷺ مردف أبا بكر وراءه.

وفـي قول ابـن القيم رحمـه الله: فبـادر الأنصار إلى السـلاح ليتلقوا رسـول الله ﷺ، وسُـمعت الرجّة والتكبير في بني عمرو بن عوف، فكبر المسـلمون فرحًا بقدوم الرسول ﷺ، وخرجوا للقائـه ـ مظهرٌ من مظاهر الحفاوة في اسـتقباله ﷺ، ومبادرتهم إلى السـلاح تصوير لإظهـار القوة، وتلميح بالوفـاء بما عاهدوا الله عليـه في بيعتهم لرسـوله ﷺ وتثبيت لوشـائج البيعة تثبيتًا عمليًا، وازدياد في طمأنة رسـول الله ﷺ، وأنهم على عهدهم في بيعتهم له ﷺ حريصون، وعلى شـرائطها محافظون، وبأنفسهم وأموالهـم وأولادهم يفدونه ويفدون رسـالته ودعوته دعوة الحق والهدى والنور.

وسـماع الرجـة والتكبيـر فـي بنـي عمرو بـن عـوف، فكبر المسـلمون فرحًا بقدومه ﷺ، وخرجوا للقائه ـ دليل على حفاوة الاستقبال وعظمته، وفرحة الاستبشار بقدومه ﷺ، وعلى ما كانت تعمر به أنفس كافة المسلمين من المهاجرين والأنصار من التطلع إلـى وصولـه ﷺ إليهم، إذ لم يكد المسـلمون فـي بني عمرو بن عوف يسـمعون الرجّة والتكبير اللذين أحدثهما قدوم الأنصار من داخل المدينة لاستقباله ﷺ حتى جاوبوا المكبرين، وكان ﷺ قد نزل قريبًا من قباء، وأرسل إلى الأنصار، فجاءته جموعهم مكبِّرين فرحين مستبشـرين، وخرجـوا إلى جموع إخوانهـم القادمين من

المدينة ممن بادروا بلقائه ﷺ، فعظم الاستقبال وجل مظهره عن الوصف، وكان آية من أعظم آيات صدق الوفاء والحب والإخلاص.

وفي قول ابن القيم رحمه الله: فسار حتى نزل بقباء، فأقام في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة ـ ردٌّ للمشهور بين أهل السير والمغازي من أن إقامته بقباء كانت أربعة أيام بلياليها، وهي يوم الاثنين، وهو أول يوم وصل فيه ﷺ إلى علو المدينة بقباء في ضحاء اليوم وقد كادت الشمس تميل إلى الزوال، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء ويوم الخميس، ثم ترحل عنهم ضحى يوم الجمعة.

تحقيق مدة إقامته ﷺ في قباء ووقت قدومه المدينة:

وهذا الذي جزم به ابن القيم رحمه الله رواية الشيخين من حديث أنس. قال القسطلاني في المواهب: وفي صحيح مسلم، قال الزرقاني: لا وجه للاقتصار عليه ـ أي على مسلم ـ بل والبخاري كلاهما عن أنس: أقام فيهم أربع عشرة ليلة، وبه يفسر قول عائشة: بضع عشرة ليلة وهذا في البخاري قال ابن كثير في البداية: وذكر البخاري عن الزهري عن عروة: أنه ﷺ نزل في بني عمرو بن عوف بقباء، فأقام فيهم بضع عشرة ليلة، فلعل هذه الرواية هي التي حملت القسطلاني على الاقتصار على مسلم في

رواية: أربع عشرة ليلة، لأن رواية البضع تحتمل ما جاء في رواية مسلم وما هو أكثر منه مما قيل في بعض الروايات، ومن العجيب أن الوقدي حكى ما رواه مسلم وتحتمله رواية عروة عند البخاري بصيغة التمريض، فقال: ويقال: أقام فيهم أربع عشرة ليلة، وأضعف الروايات في مدة إقامته ﷺ ببني عمرو بن عوف بقباء أشهرها عن أصحاب المغازي والسير وهي رواية الأيام الأربعة.

ولا يجوز العدول عن رواية الصحيح إلى غيرها مما لا يعدلها صحة سند، ويدل لها أنها هي المدة المناسبة لبناء مسجد قباء الذي بناه رسول الله ﷺ وقام معه المسلمون في بنائه في هذه المدة التي أقامها ﷺ في بني عمرو بن عوف بقباء، بدليل قول رواية البخاري: وأسس مسجد قباء في تلك الأيام، أي الأيام التي أقامها ﷺ بقباء، فلو كانت تلك الأيام أربعة أيام فقط، وفيها مظاهر الاستقبال والفرحة والسلام على رسول الله ﷺ ما أغنت شيئًا في إقامة بناء هذا المسجد العظيم، وهذه الرواية لم تثبت في حديث صحيح، وإنما تناقلها أصحاب المغازي والسير خلفًا عن سلف، لكن رواية الأربع عشرة ليلة رواية مسندة بأرفع الإسناد، وهي وسط بين المقلِّين والمكثرين، ومن هنا كانت حريَّة بالقبول.

وقال ابن كثير في (البداية): وذكر البخاري عن الزهري عن

عــروة أنه ﷺ نزل في بني عمرو بن عوف بقباء، وأقام فيهم بضع عشرة ليلة، وأسس مسجد قباء في تلك الأيام.

وذكر موســى بن عقبة، وهو من أرباب السير والمغازي عن ابن شــهاب عن مجمع بــن جارية أنه ﷺ أقام في بنــي عمرو بن عوف اثنتين وعشرين ليلة.

وقــد رجــح الحافظ ابن حجــر رأي ابن القيم فــي إقامته في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة، ولكنه أبعد وأغرب في بيان وجه هــذا الترجيــح، فقال: إن هــذه المدة رواية أنس بــن مالك، وأنس ليس من بني عمرو بن عوف فإنهم من الأوس، وأنس من الخزرج، وقد جزم بما ذكر، فهو أولى بالقبول من غيره.

وهذا ترجيح لا يعتمد على سند علمي، ولكنه يعتمد على فرض تأثيــر العصبية القبلية التي ارتفع عنها أنس بنفســه، فشــهد لبني عمرو بن عوف الأوسيين، وهو خزرجي، ومعنى هذا أن أنسًا رضي الله عنه لو كان أوسيًا من قبيلة بني عمرو بن عوف لكان متهمًا في شــهادته لهم، وحاشا أصحاب رسول الله ﷺ، ولا سيما خواصهم مثل أنس رضي الله عنه أن يتأثروا بهذه النزعات التعصبية.

وكيــف يجنــح إلى هــذا التوجيه مثــل ابن حجــر، ويترك وجه الترجيــح الصحيح القوي وهو بين يديــه، وكان يكفيه أن يقول:

إنه من إخراج الشيخين، وقد ذكر هذا الوجه في الترجيح الزرقاني بعد أن ساق كلام ابن حجر، فقال: ولا سيما مع صحة الطريق إليه؛ لأنه من رواية الشيخين، وذكر صاحب ذخائر العقبى في مناقب القربى أنه ﷺ أقام في بني عمرو بن عوف بقباء ليلة واحدة، أو ليلتين.

وهذا اختلاف غريب، يبتدئ بليلة واحدة، وينتهي باثنتين وعشرين ليلة، ومثل هذا الاختلاف في تباعده اختلافهم في زمن خروجه ﷺ من مكة إلى المدينة ووقت وصوله إلى المدينة، فعند موسى بن عقبة أن قدومه ﷺ للمدينة كان لهلال شهر ربيع الأول، أي إنه كان في أول يوم منه، وعند ابن إسحاق أنه ﷺ قدم المدينة لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، وهذا قريب من قول موسى بن عقبة أو هما قول واحد، بالنظر إلى إهلال الشهر، فقد يختلف الإهلال في بلد وأفق عنه في بلد وأفق آخر، وعند ابن إسحاق أيضًا من طريق إبراهيم بن سعد أنه ﷺ قدم المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، أو لثلاث عشرة منه كما ذكره أبو سعيد النيسابوري في كتابه: (شرف المصطفى)، وهذا القول ليس خلافًا لسابقه، ولكنه يئول معه إلى قول واحد حسب اختلاف الآفاق في إهلال الشهر، وقيل إن دخوله ﷺ المدينة كان لاثنتين وعشرين ليلة من ربيع الأول، وقال ابن حزم: خرجا ـ أي النبي ﷺ وصاحبه الصديق -رضي الله عنه ـ من مكة، وبقي من

صفـر ثلاث ليـال، وهذا قريب من القول المشـهور من أن وصوله ﷺ المدينة كان لاثنتي عشـرة ليلة من شـهر ربيـع الأول، وهذه اختلافـات عجيبـة، تتباعد حتى لا تـكاد تلتقـي، وتتقارب حتى تـكاد تتوحد، ولعل مرد ذلك عدم العناية إذ ذاك بتسـجيل أوقات الأحداث تسجيلاً كتابيًا يحفظها ليكون فيصلاً فيها.

ويؤيـد روايـة البخاري فـي إقامته ﷺ في بني عمـرو بن عوف بقباء أربع عشـرة ليلة قول أبي قيس صرمة بن أبي أنس: كما ذكر ذلك ابن إسحاق وغيره، ورواه عبد الله بن الزبير الحميدي وغيره عن سـفيان بن عيينة عن يحيى بن سـعيد الأنصاري عن عجوز من الأنصار قالت: رأيت عبد الله بن عباس يختلف إلى صِرمة بن قيس ليحفظ هذه الأبيات:

ثوى في قريش بِضْع عشرة حِجَة ... يذكّـر لـو يلقـى صديقًـا مواتيًا
ويعرض في أهل المواسـم نفسه ... فلم يـر من يُئْـوي ولم يـر داعيًا
فلمـا أتانا واسـتقرت بـه النوى ... وأصبـح مسـرورًا بطيبـة راضيًـا
فأصبح لا يخشى من الناس واحدًا ... قريبًا ولا يخشـى من الناس نائيًا
بذلنا لـه الأمـوال من حـلِّ مالنا ... وأنفسـنا عنـد الوغـا والتآسـيا
نعادي الذي عادى من الناس كلهم ... جميعًا ولو كان الحبيب المواسيا

وهي قصيدة متوسـطة الطول، وشريفة المعنى، جيدة المبنى، وقائلها ممن تحنّف في الجاهلية ثم أسلم.

تحقيق الاختلاف في بناء مسجد قباء

هذا المسجد المبارك الذي أعلى الإسلام مكانته، بجعله واليًا في التعظيم والتقديس والترغيب في التعبد به للمساجد الثلاثة المنفردة بالتقديس، والتي خصها رسول الله ﷺ بأنها هي المساجد التي لا تشد الرحال إلا إليها، وهي: المسجد الحرام مسجد الكعبة المشرفة بمكة المكرمة، ومسجد المدينة المنورة، وهو مسجد رسول الله ﷺ، والمسجد الأقصى، وهو مسجد إيليا بالشام الذي خصه الله تعالى، فجعله نهاية تشريف رسول الله ﷺ بالإسراء، وهو أعظم آية حسية مادية أوتيها خاتم الأنبياء نبينا محمد ﷺ.

ومسجد قباء أول مسجد في الإسلام كله جامع عام للمسلمين أُسِّس بعد النبوة، أسسه رسول الله ﷺ وأكمل بناءه وهو يعمل فيه بنفسه الشريفة مع أصحابه، وكان ﷺ ينقل حجارته مع المسلمين.

يقول السهيلي في (الروض): وذكر ابن خيثمة أن رسول الله ﷺ كان أول من وضع حجرًا في قبلة هذا المسجد المبارك، ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه إلى حجر أبي بكر، ثم أخذ الناس في البنيان، ثم قال السهيلي: إن الخطابي

روى عن الشـموس بنت النعمان الأنصاريـة قالت : كان النبي ﷺ حين بنى مسـجد قبـاء يأتي بالحجر قد هصره ـ أي ألصقه وشـده بيديه ـ إلى بطنه فيضعه ، فيجيء الرجل يريد أن يقله فلا يستطيع حتى يأمره أن يدعه ويأخذ غيره .

مساجد خاصة غير جامعة :

ولا ينافي هذا من تحقيق تأسـيس رسـول الله ﷺ لمسجد قباء وعملـه فـي بنائه حتى أكمل فـي المدة التي أقامهـا ﷺ في قباء ـ وهـي كما حققناه فيما سـبق أربع عشـرة ليلة ـ ما جاء في شـرح المواهـب للزرقاني من قوله : وروى يونس في زيادات المغازي عن الحكم بن عتيبة ، قال : لما نزل ﷺ قباء قال عمار بن ياسـر رضي الله عنـه : ما لرسـول الله بـدٌّ من أن نجعل له مكانًا يسـتظل فيه إذا اسـتيقظ ، ويصلـي فيه ، فجمع ـــ أي عمار ـ حجارة فبنى مسـجد قبـاء ، لاحتمال أن يـراد بقوله : بنى مسـجد قباء إنه ابتـدأ بناءه ، ولاحتمـال أن محمـل عمل عمار لـم يكن بناء مسـجد عام جامع للمسـلمين لجُمَعِهم وجماعاتهم كما هو حال مسـجد قباء الذي بنـاه رسـول الله ﷺ ، وإنما كان عمل عمار رضـي الله عنه إحداث مكان يسـتريح فيه رسـول الله ﷺ ويسـتظل فيه إذا اسـتيقظ من نومه ، ويجلس فيه إلى أصحابه هاديًا مفقها لهم في الدين ، ويصلِّى

فيه فرضه ونفله، ثم بناه رسول الله ﷺ مسجدًا عامًا للمسلمين يقيمون فيه جمعتهم وجماعاتهم.

وكذلك لا ينافيه قول الزرقاني وسياقه حديث ابن أبي شيبة عن جابر رضي الله عنه قال: لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا رسول الله ﷺ بسنتين نعمر المساجد، ونقيم الصلاة، وقد أقبل المتقدمون في الهجرة من أصحاب النبي ﷺ والأنصار بقباء قد بنوا مسجدًا يصلُّون فيه.

فلما هاجر ﷺ وورد قباء صلى فيه إلى بيت المقدس، ولم يحدث فيه شيئًا، فهذه كلها مساجد خاصة بأفراد أو جماعة تحويها دار أو ساحة محدودة، وليست مساجد عامة لجماعة المسلمين وتجمّعهم، ويؤيد ذلك قول جابر رضي الله عنه: لقد لبثنا قبل أن يقدم رسول الله ﷺ بسنتين نعمر المساجد ونصلِّي فيها، لأن انتشار الإسلام بالمدينة انتشارًا يحتاج فيه إلى مساجد عامة، تقام فيها جماعة المسلمين وتؤدى فيها جمعتهم، إنما كان قبل الهجرة بسنة واحدة، بعد البيعة الثانية: بيعة الاثني عشر من الأوس والخزرج، وبعد بَعْث مصعب بن عمير معهم ليقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، وحتى هذا الانتشار كان محصورًا، ثم استعظم وزاد زيادة عظيمة أصبح بها للمسلمين مجتمع يحتاج إلى مساجد الجمعة والجماعة بعد البيعة الكبرى،

وهي البيعة الثانية في رأي بعض العلماء، والثالثة في رأي آخرين، ومقدم رسول الله ﷺ بعد هذه البيعة الكبرى بيعة السبعين بثلاثة أشهر إلى المدينة المنورة.

ففي حديث جابر رضي الله عنه تجوُّز بإرادة مساجد خاصة كالذي بناه أبو بكر الصديق بفناء داره بمكة، وكان يصلِّي فيه، فيتقصَّف عليه الولدان والنساء يستمعون إلى قراءته القرآن وهو يبكي، فخشي المشركون على ذراريهم أن تأخذهم رقّة الصديق إلى حظيرة الإسلام، فطلبوا إلى ابن الدغنّة الذي كان قد أجار الصديق أن يطلب من الصديق أن يصلِّي في داخل داره أو يرد عليه جواره، فردَّ أبو بكر رضي الله عنه جوار ابن الدغنّة ورضي بجوار الله تعالى.

وقد حاول الزرقاني أن يجمع بين رأي من قال: إنه ﷺ صلّى في مسجد قباء إلى بيت المقدس ولم يحدث فيه شيئًا، وبين رأي من يقول: إنه ﷺ أسسه وبناه والمسلمون يعملون معه في بنائه حتى أكمله في مدة إقامته بقباء ثم ترحل عن قباء في يوم الجمعة، فقال: إنه ﷺ لم يحدث فيه شيئًا في أول بنائه، لكن لما قدم وصلّى فيه غيَّر بناءه وقدم القبلة موضعها اليوم، كما في حديث ابن أبي شيبة.

فمسجد قباء الجامع العام المشهور في الإسلام، والذي ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ كان يأتيه كل يوم سبت راكبًا أو ماشيًا، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ كما في حديث الترمذي عن أسيد بن ظهير: «إن الصلاة في مسجد قباء ركعتين أحب إليّ من أن آتي بيت المقدس مرتين، لو كانوا يعلمون ما في قباء لضربوا إليها أكباد الإبل»، وأخرج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر مرفوعًا: «من صلّى في مسجد قُباء كان كعدل عمرة» ـ هو المسجد الذي أسسه وبناه رسول الله ﷺ، ومعه أصحابه يعملون في بنائه حتى أكمله.

ولما أتمّه ﷺ تجهز إلى دخول المدينة، وحفّ به أصحابه يتنازعون زمام ناقته تكريمًا وتعظيمًا له ﷺ، وسار في ركبه الميمون حتى أدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، وفي هذا دلالة على كثافة الركب وكثرة المجتمعين حوله ﷺ، لأن المسافة بين منازل بني عمرو بن عوف ومنازل إخوانهم بني سالم بن عوف قصيرة تعد بعشرات الأذرع، لو كانت في سير عادي لم تحتج إلى زمن طويل، لكن شدة الزحام ووآدة السير[٣٨] توقيًا لأخطار السرعة هما سبب قطع هذه المسافة القصيرة في الزمن الطويل.

(٣٨) وآداة السير أي السير البطيء.

تحقيق الاختلاف في المسجد الذي أسس على التقوى:

ومسجد قباء هو المسجد الذي أنزل الله فيه قوله عز شأنه:

﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة: ١٠٨) والإجماع قائم على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ هم الأنصار أهل قُباء، ويدل للإجماع قوله ﷺ في حديث عند الإمام أحمد: «إن الله قد أحسن الثناء عليكم في الطهور في قصة مسجدكم هذا، فما هذا الطهور الذي تطهّرون به؟» قالوا: والله يا رسول الله لا نعلم شيئًا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا، وبدليل حديث أبي هريرة عند أبي داود والترمذي وابن ماجه عن النبي ﷺ: «نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾» وهذا الحديث أصرح في الدلالة.

وليس هذا من قبيل المفاضلة بين مسجد ومسجد، وإنما هو من قبيل المدح الرفيع في مقابلة الذم الشنيع، فالمدح لمسجد أسس على التقوى، خالصًا لوجه الله، نقيا من الشوائب، والذمُ لمسجد أقيم على دعائم الكفر وفجور الشرك، مضارّة لدين الله،

ومخادعة لرسول الله ﷺ ، وتفريقا كلمة المسلمين ، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من رءوس المنافقين الذين يكيدون للإسلام والمسلمين ، ويبغونهم الغوائل .

فالمدح العلي الرفيع لمسجد قباء الذي أسسه وبناه رسول الله وأصحابه ، وهو مسجد الإسلام في قباء الذي أقيم أساسه وبناؤه على تقوى من الله ورضوانه ، تعبدًا له عز شأنه ، ومدعاة لإعلاء كلمته ، كلمة الحق والهدى والنور ، وإخلاص الدين لله الواحد الأحد ، وإسلام الوجه لجلال كبريائه .

والذم الشنيع لأخبث بناء على وجه الأرض ، أسسه وبناه أخبث قوم استبطنوا العتو والفجور والكفر ، وقالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، جاء الإسلام فكان غصّة في حلاقيمهم ، وجاءت رسالته فشرقوا بها ، وجاءهم رسول الله ﷺ فأهلكهم الكمد حسدًا ، وبخعهم المكر السيء حقدًا ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، وهذا اللعين هو المسمّى في الإسلام بمسجد الضرار .

كان قائد هذه الجراثيم الوبائية الفاسق أبو عامر الذي نغل الحقد قلبه ، فأعقبه كفرًا ونفاقًا لا يشفيه منهما هو وأصحابه الفجرة إلا أن تتقطع قلوبهم خزيًا وخذلانًا وذلّة في الحياة الدنيا ، وعذابًا مهينًا في الآخرة .

ولا محل للموازنة قط بين الخير المضيء بنور الهدى المصفّى

من الأدران والأرجاس وبين الشر الخبيث المظلم بظلمات العتو والفجور، المعجون بالإثم والعناد الكفور، فلفظ (أحق) في قوله تعالى: ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ جُرِّدَ عن أفعليته، وكان المراد منه (حقيق) وأهل لأن تقوم فيه للملاءمة بينك ـ في صفاء طبيعتك، ونور قلبك، وإشراق روحك، ونقاء فطرتك، وسمو شمائلك، وعلو مكارمك ـ وبينه حيزًا للخير والهدى والنور والطهر، ومباءة للإيمان، ومثوى للإخلاص.

أما ذاك الشر الخبيث المستخبث، المشمول بسخط الله ولعناته، فأنت أرفع وأجل من أن تُخدع بمعسول القول عنه من الأخابث الذين أقاموا جدرانه على نزيز من الفجور، وحمأة من خبال الحقد المظلم، والإفساد في الأرض.

فالذين يعقدون موازنة في الفضل بين فاضلين أسسا على التقوى، أسسهما وبناهما أتقى الأتقياء، وسيد الخلصاء، وإمام المخلصين، سيدنا رسول الله ﷺ محمد خاتم النبيين، إنما يريدون التنويه بفضل الفاضلين، ولا يريدون مفاضلة بين الفاضلين، بله تفضيل الفاضل على الأفضل.

وقد ثبت بالقواطع من الأدلة أن مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة

المنورة هو أفضل مساجد الدنيا سوى المسجد الحرام، مسجد الكعبة المشرفة فهو مثله في الفضل أو أفضل منه، فأي وجه لعقد مفاضلة بين فاضل لا يلحق فضله أفضلية الأفضلين.

فالحديث الوارد في سؤال بعض الصحابة النبي ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى، فقال: «هو مسجدكم هذا» وهذا من رواية مسلم في الصحيح لا منافاة بينه وبين ظاهر الآية؛ لأن المسجدين مسجد قباء ومسجد المدينة المنورة أسسا على التقوى، كما ذهب إليه الداودي وابن حجر، وروى الإمام أحمد والترمذي عن أبي سعيد: اختلف رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك، فقال: «هو هذا، وفي ذلك خير كثير».

قال الزرقاني: ولهذه الأحاديث وصحتها جزم الإمام مالك في العتيبية بأن الذي أسس على التقوى مسجد المدينة. قال ابن رشد في شرحها: إنه الصحيح، قال الحافظ ابن حجر: والحق أن كلّا منهما أسس على التقوى، وقوله تعالى في بقية الآية: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ يؤيد كون المراد مسجد قباء، وعند أبي داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «نزلت

في رجال يحبون أن يتطهروا، نزلت في أهل قباء».

قال الزرقاني: وعلى هذا فالسر في جوابه ﷺ بأن المسجد الذي أسس على التقوى مسجده هو رفع توهم أن ذلك خاص بمسجد قباء، قال الداودي وغيره ليس هذا اختلافًا لأن كلّا منهما أسس على التقوى، وقال بعض العلماء: إن قوله: من أول يوم يقتضي مسجد قباء، لأن تأسيسه في أول يوم حل فيه النبي ﷺ بدار الهجرة.

وهذا اختلاف عجيب لا ندري كيف ابتدأ، فالآية وأحاديث أسباب نزولها، وواقع الأمر في تقدم تأسيس وبناء مسجد قباء زمنًا على مسجد رسول الله ﷺ، ونزول قوله تعالى: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ وهم الأنصار من أهل قباء، ونزول قوله جل شأنه: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ وقد فسر أول يوم بأول يوم حل فيه رسول الله ﷺ بدار هجرته، ويؤيد ذلك حديث «إن الله قد أحسن الثناء عليكم في الطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطّهرون به» وهذا كله إنما كان لأهل قباء، والحديث رواه الإمام أحمد من طريق عويم بن ساعدة، قال: إن رسول الله ﷺ أتاهم في مسجد قباء، فقال لهم: «إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور» وقد روى أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة أن النبي

ﷺ قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء» ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ـ صريحة في أن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم كما هو ظاهر الآية هو مسجد قباء.

فكيف إذا وقع الاختلاف في المسجد الذي أسس على التقوى، فيسأل الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري رضي الله عنه النبي ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى، فيجيبه النبي ﷺ بقوله: «هو مسجدكم هذا» يعني مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة؟ ثم كيف يختلف رجلان من الصحابة في أي المسجدين هو الذي أسس على التقوى؟ فيقول أحدهما: هو مسجد قباء، ويقول الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، ويأتيان النبي ﷺ يسألانه عن ذلك فيقول ﷺ: «هو هذا، وفي ذلك خير كثير».

ثم كيف يجزم الإمام مالك رضي الله عنه بأن الذي أسس على التقوى هو مسجد المدينة أخذًا بالأحاديث الصحيحة دون نظر إلى ظاهر القرآن الحكيم، ودون نظر إلى تأويل هذا الظاهر القرآني تأويلاً يجمع بينه وبين نص الأحاديث؟ ثم يأتي ابن رشد الفقيه الكبير جد صاحب بداية المجتهد، ويقول في قول مالك هذا: إنه الصحيح؟

ثــم يأتــي الداودي ويقــول: ليس هــذا اختلافًــا لأن كلّا منهما أســس على التقوى، وهل يؤدِّي ســديد النظر إلى أن هذا كله ليس اختلافًا؟ وإذن ففيم كان ســؤال الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ؟ وكيــف يكــون جواب رســولَ الله ﷺ مطابقًا إذا لم يكن هــذا اختلافًــا؟ وإذا كان هــذا ليس اختلافًا فهل قــول الداودي لأن كلا منهما أســس على التقول يتمشّــى مع فهم الصحابة الذي كان بمقتضاه سؤالهم لرسول الله ﷺ، وكانت إجابته ﷺ مفيدة أنهم رضي الله عنهم كانوا يفهمون الوضع على أنه اختلاف.

وكيــف يأتي الحافــظ ابن حجر فيقول كلامًــا متدافعًا، يدفع عجــزه فــي صــدره إذ يقــول: والحــق أن كلا منهما أســس على التقوى، وهذا يعارضه أشــد المعارضة فَهْــمُ الصحابة وتوجههم بالسؤال إلى رسول الله ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى ويجيبهم رســول الله ﷺ بما يفهم منه قطعًا أنهم على اختلاف، وقــد عيّــن لهم بجوابه المســجد الذي أســس علــى التقوى بأنه مسجده ﷺ بالمدينة.

ثــم يقول ابن حجر: وقوله تعالى في بقية الآية: ﴿ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ يؤيــد كون المراد مســجد قباء، وهــذا دافع لقوله في صــدر كلامه: والحق أن كُلّا منهما أســس علــى التقوى، ومناقض لفهم الصحابة وإجابة رسول الله ﷺ؟

هذه مسألة كان السكوت عنها أولى من إثارتها بمثل ما أثيرت بـه من أخـذ ورد، وأصحاب النبي ﷺ أفهم النـاس لمرامي القرآن ومضامينه من المعاني والحقائق، وهم لا يسألون إلا على ما غمض عليهم، والنبي ﷺ بيـن أظهرهم، وهو ﷺ المبيّن لما غمض من آيات ما أنزل عليه، فسئل ﷺ وأجاب، فكانت المسألة في حاجة إلى السؤال في نظرهم رضوان الله عليهم، وأجيبوا فاقتنعوا، وإذن فما مبعث السـؤال عند الصحابة، وهم رضي الله عنهم على أكمل الاعتقاد بأن المسجدين أسسا على التقوى؟ وقد أسسهما وأكمل بناءهما سيد المتقين.

ويغلب على الظن أن لا تدافع بين نصوص الأحاديث وظاهر الآيـة، فهذا الظاهر هو على ما هـو عليه مؤيدًا ببعض الروايات من أن المسـجد المذكور في الآية الذي أسـس على التقوى هو مسـجد قباء، ولا يشك مؤمن في أن مسجد رسول الله ﷺ وهو غير مراد في الآية أسـس على أتقى التقوى، فالمسجدان أسسا على التقوى باتفاق.

وإنما كان مبعث سؤال الصحابة عن أي المسجدين أسس على التقوى من أول يوم حل رسول الله ﷺ بمكانه، فالسؤال قصد إلى استبانة أي المسجدين أسس على التقوى من أول يوم، أي أن محطّ السؤال هو التأسيس على التقوى مقيدًا بكونه من أول يوم، وليس

سـؤالاً عن مطلق التأسـيس على التقوى ؛ لأنه لا يدور بخلد مؤمن أن أي المسـجدين وقـد أسسـهما وبناهما رسـول الله ﷺ وصلَّى فيهما غير مؤسس على التقوى، فتأسيس المسجدين على التقوى ليس محل اختلاف ولا هو مبعث سـؤال، والمراد بأول يوم، اليوم الأول الـذي حلَّ فيه رسـول الله ﷺ بالمكان الـذي صار فيما بعد مسـجدًا سـواء أكان ذلك في قباء أو داخل المدينـة، والمعنى أي المسـجدين ابتدأ تأسيسـه على التقوى في أول يوم حلَّ فيه رسول الله ﷺ بمكانه، ويظهر أن مسجد قباء لم يبدأ فيه عمل رسول الله ﷺ من أول يوم حل فيه بقباء ؛ لأنه ﷺ وصل بركبه المبارك إلى قبـاء إثر رحلة طويلة شـاقة متعبة، وكان أصحابه مـن المهاجرين والأنصار في لهفة شـديدة، ينتظرونه، فالمعقول أن يكون رسـول الله ﷺ قد أخذ وقتًا طويلاً يؤدي فيه حق أصحابه المتشـوقين إلى مشـاهدته والسـلام عليه والترحيب به في اسـتقبال بذلوا فيه من مظاهر الوفاء وروعة الحب، ووقتًا يؤدي فيه حق نفسـه في الراحة والاسـتجمام، ليسـتعد لجهد شـاق مطلوب منه بذلـه في هجرته ومجتمعه الجديد وسياسة هذا المجتمع، ونظام حياته، وقد يلمح إلى هذا حديث عمار بن ياسـر إذْ يقول: ما لرسـول الله ﷺ بدٌّ من مكان يستظل فيه إذا استيقظ ويصلِّي فيه، ويحدِّث أصحابه هاديًا مرشدًا مبلِّغًا رسالة ربه.

ثم بعد أن أخذ رسول الله ﷺ شيئًا من الراحة والاستجمام بدأ في تأسيس وبناء مسجد قباء حتى أكمله ووضع قبلته وصلّى فيه مع أصحابه ما أتيح له من الصلوات.

وبهذا يكون تأسيس مسجد قباء على التقوى ليس من أول يوم حلّ فيه رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بقباء، أما مسجده ﷺ بالمدينة فقد ابتدأ العمل في تأسيسه منذ اللحظة الأولى لوصوله إلى مكانه حيث بركت ناقته في مربد سهل وسهيل في مكان منبره أو بابه، وقال لولي اليتيمين بعد أن سأل عنهما مثامنًا لشراء المكان: ثامنوني، أي قولوا: ماذا يكون ثمنه؟ وبتمام شراء أرض المربد أخذ ﷺ في تنظيفها من قبور المشركين، وتسويتها، وتسريب النخيل الذي كان فيها، وإعدادها للبناء، ونصب العمد من جذوع نخلها من أول يوم حل فيه ﷺ في مكان مسجده الأشرف الأنور، حيث بركت ناقته، ثم أخذ ﷺ ومعه أصحابه في البناء حتى أكمله، وأصبح هو المسجد الذي خلص في كل شأن من شئونه لرسول الله ﷺ، وأقيمت فيه جماعته الدائمة في جميع أوقات الصلاة المفروضة بإمامة رسول الله ﷺ في حياته وإمامة الراشدين من خلفائه، وصليت فيه الجمع، وتحدث فيه رسول الله ﷺ إلى أصحابه وخطبهم في كل ما ينوبهم، وتشاور فيه معهم في مهمات أمور المسلمين، وعقدت فيه لكتائب الجهاد الألوية،

والوحى ينزل فيه على النبي ﷺ، وجبريل يدارسه القرآن، ويبلِّغه رسـالات ربه ليبلغها ﷺ إلى أمته قولاً وعملاً، وفيه تربى الصفوة من الدعاة إلى الله، وفيه عقدت حِلق العلم والإرشاد.

فـإذا سئل رسـول الله ﷺ عـن المسـجد الذي أسـس على التقوى، ولم يربط السائل سؤاله بنص الآية، وأجاب رسول الله ﷺ عن السـؤال بأنه مسجده هذا ـ كان جوابه ﷺ أسدّ جواب عن سـؤال، لأن التقوى تتفـاوت درجاتها بتفاوت الأعمال التي تصورها في القلوب.

وإذن يكـون المسـجد الذي أسـس على التقوى فـي نص الآية هو مسـجد قباء، ويكون المسجد الذي أسـس على أكمل مراتب التقوى من أول يوم إلى آخر أيام الحياة هو مسـجد رسـول الله ﷺ الذي اختاره الله له ولأمته مشـعل هداية ومشـكاة نور ومبعث حياة روحية تفوق كل حياة يحياها عباد الله المخلصون.

أول جمعة في الإسلام صلاها النبي ﷺ:

ثم خرج رسـول الله ﷺ في ركبـه المبارك حين ارتفع النهار من يـوم الجمعة، يحفه الأنصار من بني عمرو بن عوف مودِّعين، ومن سـائر بيوتات أوس المدينة وخزرجها مرافقيـن، فأدركته الجمعة في بني سـالم بن عوف، فنزل وصلاها في المسـجد الذي في بطن

الـوادي، وادي رانوناء، فكانت أول جمعة صلاها رسـول الله ﷺ بعـد النبوة ؛ لأنه ﷺ لـم يكن متمكنًا في مكـة من صلاة جماعة ظاهرة، يخطب فيها كالجمعة؛ لأن الجماعة المسـلمة كانت في مكـة قليلـة العدد، تـؤذى بأفدح الإيـذاء، ولم يكن قـد أذن إليها بالدفاع عن نفسـها، بـل كانت مأمورة بالعفـو والصفح والصبر، والتجـاوز عـن سـفاهة السـفهاء، وغفـران السـيئات ومقابلتها بالإحسـان، والقـرآن الكريـم يقول لرسـول الله ﷺ : ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعـراف : ١٩٩) ويقـول للمؤمنين على لسان رسوله ﷺ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ (الجاثية : ١٤).

وقد اختلفت الروايات في العدد الذي صلّى مع رسـول الله ﷺ هذه الجمعة، فقال القسـطلاني في (المواهب) : كانوا مئة، وقال شـارحه الزرقاني وقيل : كانوا أربعين، وقد استشكل الزرقاني هذا العـدد في القولين وأجاب عنـه، فقال : ولا ينافيهما رواية أنه حين قدم ﷺ استقبله زهاء خمس مئة بقباء، لجواز أنهم رجعوا بعد إلى المدينة، فلم يبق معه ﷺ لما دخل بني سالم بن عوف إلا هؤلاء ـ أي الذين قيل إنهم صلّوا معه.

نظر وتوضيح :

وهذا الجواب يحتاج إلى نظر وتوضيح ، فهو قد يكون مسلّمًا على رواية أنه ﷺ أقام بقباء مدة طويلة ، أقلها ما جاء في رواية الشيخين أربع عشرة ليلة أو بضع عشرة ليلة ، والمسافة بين قباء وبطن المدينة حيث منازل القوم الذين نهضوا في أسلحتهم لاستقباله ﷺ والسلام عليه والحفاوة بمقدمه في كثرة عددهم لا تزيد على فرسخ واحد ، يمشيه السائر على قدميه ، ويقطعه الراكب في مدة وجيزة لا يعسر فيها التردد على قباء في أيام إقامته فيها ، فلعل بعض المترددين بين قباء والمدينة من الذين نهضوا في أول يوم قدم فيه ﷺ لاستقباله كان كثير منهم قد ذهب بعد الفراغ من حفاوة الاستقبال إلى منازلهم بالمدينة ، وبقي منهم من سار معه ﷺ مع بني عمرو بن عوف ، ومن تلقّاه من بني سالم بن عوف . هذا العدد في قوليه ، وهو على ذلك التوجيه لا يزال بعيدًا ، لأن الذين نهضوا من المدينة للسلام عليه والحفاوة باستقباله قُدّروا بخمس مئة ، ولا بّد أن يكون قد كان معهم عدد انضم إليهم من بني عمرو بن عوف ، فإذا ركب ﷺ متوجهًا إلى المدينة بعد إتمامه بناء مسجد قباء ، فلا بد أن يكون قد حفّ بركبه عدد من بني عمرو بن عوف لوداعه ، ولا بد أن يكون قد استقبله عدد من بني سالم بن عوف ، وقد كانوا على استعداد لإظهار كثرة عددهم

وقوتهم ومنعتهم ليبقى عندهم وهم أول من عرض عليه ﷺ ذلك من بيوتات الأنصار، وعلى هذا يكون تقدير العدد الذي صلى معه ﷺ أول جمعة في الإِسلام صلّاها ﷺ بالمسلمين فيه تسامح كبير وتجوّز بُني على شيء من التساهل وعدم التدقيق، أو يكون هذا العدد المذكور في تقدير من صلَّى معه هو العدد الذي اتسع له مسجد بني سالم بن عوف، وهو مسجد صغير كما تقول سائر الروايات، ولم يدخل في العدد من صلّى خارج المسجد.

أما على رواية أصحاب المغازي والسير التي رجّحها ابن إسحاق وهو المرجع فيها من أن إقامته ﷺ في قباء كانت أيامًا قليلة، لم تتجاوز أربعة أيام بدأت بيوم الاثنين، يوم وصوله إلى مشارف المدينة ونزوله على بني عمرو بن عوف بقباء فبعيد جدًا في جو هذا الاستقبال الحاشد الحافل أن يرجع أكثر العدد الذي نهض للحفاوة والاستقبال، ولا سيما أنه ﷺ كان في مدة إقامته بقباء يعمل جاهدًا مع أصحابه في تأسيس وبناء مسجد قباء، مما يجعل الناهضين لاستقباله والحفاوة به لا يفارقونه إلا ريثما يذهب من يذهب منهم إلى المدينة حيث منازلهم للنظر في مصالحهم ومصالح أسرهم، والإِعداد لاستقبال رسول الله ﷺ إذا وصل لساحتهم، ولا يمكن القول بأنهم أو بعضهم آثروا الصلاة في مساجدهم على صلاتهم مع النبي ﷺ أول جمعة يصليها بعد

النبوة، وهم يعلمون أنها أول جمعة في الإِسلام يصليها رسول الله ﷺ بالمسلمين.

وقد يدل دلالة بينة على أن الذين نهضوا للاستقبال العظيم ـ وقُدِّروا بخمس مئة أو يزيدون لم يرجع منهم إلى المدينة إذا صح الأثر بالرجوع رواية إلا عدد قليل ـ قول موسى بن عقبة: وكانت الأنصار قد اجتمعوا قبل أن يركب رسول الله ﷺ من بني عمرو بن عوف فمشوا حول ناقته، لا يزال أحدهم ينازل صاحبه زمام الناقة شُحّا على كرامة رسول الله ﷺ وتعظيمًا له.

ومسجد بني سالم بن عوف مسجد صغير في بطن الوادي، وادي رانوناء، وهو مبني بالحجارة، قدر نصف القامة، وهو على يمين السالك إلى مسجد قباء، ويقال له: مسجد بني سالم، ومسجد (غُبَيب) تصغير غب، كما ذكر المجد الفيروزآبادي صاحب القاموس في كتابه (المغانم المطابة في فضائل طابة)، ويسمى أيضًا مسجد الجمعة لصلاته ﷺ أول جمعة فيه، وهي أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بعد النبوة، وحكى الزرقاني قولاً لم يسنده إلى أحد، فقال: وقيل: إنه ﷺ كان يصلِّيها في مسجد قباء مدة إقامته فيها، وهذا قول لا يعتد به لمخالفته المشهور الذي عليه الجمهور.

الفهـــرس